

عبدالله كنون

(المقالات الصحافية)

كتاب الدوحة

عبدالله كنون



كتاب الدوحة 70

يُوزَّع مجّاناً مع العدد (113) من مجلَّة «الدوحة» - مارس - 2017

عبدالله كنون

(المقالات الصحافية)

الناشر :
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفَنّي للغلاف: صورة عبدالله كنون
الإخراج والتصميم: القسم الفَنّي - مجلّة الدوحة

عبدالله كنون

(المقالات الصحافية)

كتاب الدوحة

تقديم

وُلِدَ عبد الله كنون بمدينة فاس في 30 شعبان 1326 هـ/1908 م وتُوفي في 9 يوليو 1989م. ولما بلغ السنة السادسة من عمره انتقل مع والده إلى طنجة، الذي كان ينوي الهجرة إلى الشام بسبب الاحتلال الفرنسي، ولكن إعلان الحرب العُظْمَى الأولى حال دون ذلك.

نشأ - إذن - الأستاذ عبدالله كنون بمدينة طنجة، حيث حفظ القرآن الكريم، وزاول قراءة العلم على يد والده وغيره من العلماء، وقد انحصرت دراسته فــي علوم العربيّة والفقه والحديث والتفسير، أما الأدب فقد تعاطاه هوايةً.

واشتغل الأستاذ كنون بالتدريس فــي سن العشرين، وكتب فــي الصحف ونظم الشعر قبل ذلك، وأسَّس مدرسة حرّة للبنين والبنات تخرَّج فيها كثير من المثقّفين، وعمل على إنشاء المعهد الديني بطنجة ووُلي إدارته، ثم استقال من هذا المنصب احتجاجاً على إبعاد المرحوم الملك محمد الخامس ولجأ إلى تطوان كي لا يشارك فــي بيعة ابن عرفة، وهناك أُسندت إليه وزارة العدل فــي يناير سنة 1955، ثم استقال منها فــي يناير سنة 1956 بعد رجوع السلطان من المنفــى وتأليف أول حكومة وطنيّة للمغرب الموحَّد، وكانت هذه الاستقالة مما عجَّل بهذا التوحيد وانضمام

المنطقة الخليلية إلى المنطقة السلطانية، ولما رجع إلى طنجة أناط به الملك وظيفة حاكمها العام، وكانت مهمة الأستاذ كنون هي تصفية النظام الدولي القائم في هذه المدينة وربطها سياسياً واقتصادياً بالحكومة المغربية، وقد انتهى من هذه المهمة فـــي صيف سنة 1957.

هذا، وقد اشتغل الأستاذ كنون عضواً فـــي المجلس الأعلى للتعليم بالرباط وتطوان، ومدرساً فـــي المعهد العالي بتطوان ومديراً لمعهد الأبحاث فيها، وعضواً فـــي لجنة الأبحاث العلمية بالرباط.

وفـــي الميدان الوطني كان من المؤسّسين للجمعية الوطنيّة الأولى التي تلت حرب الريف مباشرة، وهي الجمعية التي تفرَّعت عنها كتلة العمل الوطني التي انبثقت منها الأحزاب السياسيّة الكبرى بالمغرب بعد ذلك، ولكن الأستاذ كنون ظَلّ محافظاً على استقلاله متعاوناً فـــي كثير من الأحيان مع إخوانه الوطنيين، ومما هو جدير بالذكر أنه تزعَّم حركة مقاومة المتمردين على السلطان فـــي سنة 1952 وأوائل سنة 1953 وقارعهم الحُجَّة فـــي مقالات صحافية.

وقد أصدر الأستاذ كنون مجلّة شهرية باسم «لسان الدين» ظلَّت تعمل فـــي الميدان الثّقافـــي والسياسي مدة ثماني سنوات، وقد نشر فيها أبحاثاً ومقالات كثيرة، كما نشر فـــي غيرها من مجلّات الشرق والغرب دراسات وموضوعات مختلفة، وخاصّة مجلّة الرسالة المصريّة ومجلّة المجمع العلمي العربي، ومجلّة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربيّة، ومجلّة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، ومجلّة تطوان، ومجلّة رسالة المغرب، ومجلّة السلام، ومجلّة العهد الجديد وغيرها.

كان عبدالله كنون فقيهاً، وأديباً، ومؤرِّخاً، وصحافياً كذلك، وكان في هذه المجالات مجتمعة، إلى أن رحل إلى دار البقاء، أحد الروَّاد الكبار في إرساء قواعد النهضة الأدبية والثقافية والعلمية في المغرب، منذ منتصف العشرينيّات.

ونشر الأستاذ كنون وألَّف عِدّة كتب، هي:

1 - النبوغ المغربي فــي الأدب العربي، وهو تاريخ الحركة الفكرية فــي قُطر المغرب من لدن الفتح العربي إلى العصر الحديث فــي جزأين، وقد تُرْجِمَ للإسبانية.

2 - سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، وقد صدر منها حتى الآن ثمان وعشرون حلقة.

3 - شرح الشمقمقية، وهي أرجوزة لابن الونان الشاعر المغربي تحتوي على فنون مختلفة من الأدب.

4 - شرح مقصورة المكودي.

5 - القدوة السامية للناشئة الإسلامية، وهو كتاب تربية وتهذيب.

6 - أمراؤنا الشعراء، وهو رسالة فيمن قال الشعر من ملوك المغرب وأمرائه.

7 - التعاشيب، وهي مجموعة مقالات أدبيّة ونقديّة، ثلاثة أجزاء.

8 – فضيحة المبشرين فــي احتجاجهم بالقرآن المبين، وهو ردّ على القس منرو.

9 – محاذي الزقاقية، وهو كتاب فــي القانون وفقه القضاء وقد تُرْجِمَ إلى الفرنسية.

10 – رسائل سعدية، وهو مجموعة من رسائل ملوك الدولة السعدية ومنشوراتهم مُحقَّقة مضبوطة.

11 – المنتخب من شعر ابن زاكور، وهو شاعر مغربي معروف.

12 – مجلّة لقمان، وهو بحث فــي حياة لقمان الحكيم مع مجموعة من وصاياه وحكمه.

13 – ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، نشر وتحقيق.

14 – قواعد الإسلام للقاضي عياض، نشر.

15 – الأنوار السنية لابن جزي، نشر.

16 – شرح الأربعين الطبية للحافظ البرذالي، نشر.

17 – ترتيب أحاديث الشباب لأبي الحسن القلعي، نشر.

18 – رسالة نصرة القبض والصلاة للمسناوي، نشر.

19 – شرح جمل المجراد لميارة، نشر وتحقيق.

20 – تلقين الوليد الصغير لعبدالحق الأشبيلي، نشر.

21 - مدخل إلى تاريخ المغرب، وهو موجز مدرسي لتاريخ المغرب من أقدم عصوره إلى الآن.

22 - عجالة المبتدى وفضالة المنتهى فــي النسب، للإمام أبي بكر الهمداني، نشر وتحقيق.

سعد زايد

مساهمة المغرب
فـــي تقدُّم الثّقافة العربيّة

يُحكى أن الصاحب بن عباد لما سمع بكتاب «العقد الفريد» لابن عبدربه اشتدّت رغبته فـــي اقتنائه والاطلاع عليه وعندما حصَّله وتصفَّحه قال:«هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا، كنت أظن أنه يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا هو لا يعدو أخبار بلادنا، ردُّوه إلى صاحبه، لا حاجة لنا به».

ومنذ قال الصاحب هذه الكلمة والناس يحملونها محمل الزراية على ابن عبدربه، وهي كذلك فـــي الظاهر، إلّا أنهم يغفلون عما تخفيه وراءها من حقيقة تاريخية عن واقع الحياة الأدبيّة فـــي الأندلس على عهد ابن عبدربه، وهو عهد خلفاء قرطبة من بني أمية.

فقد كان ذلك العهد فـــي الحقيقة امتداداً لعهد الخلفاء الأمويين فـــي دمشق، السياسة سياستهم والاجتماع والأدب ما كانا عليه أيام عبدالملك بن مروان وأبنائه فـــي العاصمة العربيّة الخالدة، وفيما كانت بغداد تبني مجدها ومجد العرب العلمي على أساس النقل والترجمة وتطوُّر الفكر والحضارة بالاقتباس من الأمم التي سبقتهم فـــي هذا الميدان، كانت قرطبة ماتزال تركِّز صبغتها العربيّة فتوفد رجالاً للتضلُّع فـــي الثّقافة العربيّة الإسلامية فـــي منابعها الأصلية بالمدينة وغيرها، وتستقبل آخرين من أعلام هذه الثّقافة الواردين عليها من المشرق

كأبي علي القالي وصاعد البغدادي فيلقون من الحفاوة والإكرام ما كان يلقاه الأطباء والفلاسفة حينذاك فـي بغداد عاصمة العباسيين.

ولأمرٍ ما كان ظهور كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني فـي الأندلس قبل ظهوره فـي المشرق موطن مؤلِّفه. وإذن فإن ابن عبدربه لم يكن إلّا حاكياً لصدى الثّقافة المنتشرة فـي بلاده، ومُعبِّراً أميناً عن التيارات التي توجِّه هذه الثّقافة.

وبديهي أننا نعني انصراف بغداد عن الاهتمام بالثّقافة العربيّة الإسلامية وتشجيعها، ولا إهمال قرطبة إهمالاً كليّاً للعلم والفلسفة، وإنما نقصد أن هذه هي الحالة التي كانت غالبة على كلٍّ من العاصمتين.

وحديثنا عن الأندلس يشمل المغرب العربي كلّه، ففـي القيروان بالمغرب الأوسط وفـي فاس بالمغرب الأقصى لم يختلف الاتجاه عما رأيناه فـي قرطبة، وإن لم تبلغ هاتان العاصمتان - قط - مبلغ قرطبة فـي نمو الحياة الأدبيّة وازدهارها لأسبابٍ معروفة.

أما متى تبوَّأ المغرب مكان الصدارة فـي الحياة الفكرية العربيّة، وأسهم مساهمته الفعالة فـي تقدُّم هذه الحياة فذلك حين توحَّد على يد أمراء المسلمين من ملوك المرابطين ثم على يد خلفاء الموحدين، وتابع طريقه بعد ذلك إلى هذا اليوم، فقد كانت الانتكاسة التي حلَّت بالأندلس بعد انقراض دولة الأمويين وقيام ملوك الطوائف تؤذن بانحسار المدّ العربي فـي هذه البلاد لو لم يسارع البطل المغربي العظيم يوسف بن تاشفين لإنقاذها، وفضل هذا الملك فـي استرجاع الأندلس إلى حظيرة العروبة والإسلام بعد أن أشرفت على الضياع لا يعادله إلّا فضل فاتحها الأول طارق بن زياد

المغربي.

ومعلوم أن الشرارة التي أعدت الغرب الأوروبي فأقامت فيه هذه المدنية الحديثة إنما انبعثت إليه من الأندلس فــي هذا العهد، فإن فلسفة ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن زهر وطبهم هما اللذان فتحا أعين الأوروبيين على حقائق العلم الصحيح ونتائج المعرفة المبنية على التجربة والمشاهدة.

وهؤلاء الأعلام إنما نبغوا فــي أيام المرابطين، وإنما أتوا أُكلهم الشهي فــي أيام الموحدين، فمن الثابت تاريخيا أن الخليفة الموحدي يوسف بن عبدالمؤمن هو الذي حمل ابن رشد على تلخيص فلسفة أرسطو وتهذيبها وكتابة ما كتب عليها من الشروح والتعاليق وكان هذا الخليفة أشبه الملوك بالمأمون العباسي فــي الشغف بعلوم الحكمة والعمل على نشرها، وكان هو نفسه متحققِّاً بكثير من مسائلها مشاركاً فــي جملة من فنونها، ويقول عبدالواحد المراكشي فــي كتابه «المعجب»: «إنه استظهر من الكتاب الطبي الملكي أكثره مما يتعلَّق بالعلم خاصّة دون العمل، ثم تخطّى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة».

وكان قد استوزر الفيلسوف أبابكر بن طفيل وهو الذي دلَّه على ابن رشد فاستدعاه وأفضى إليه برغبته المذكورة كما حكى ذلك المراكشي فــي تاريخه عن تلميذ له اسمه أبوبكر بن داود القرطبي عنه قال: «استدعاني أبوبكر بن طفيل، يوماً فقال لي: سمعت أمير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرِّب أغراضها بعد أن يفهمها جيداً لقرب مأخذها على الناس فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإني

لأرجو أن تفي بها لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة، وما يمنعني من ذلك إلّا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه قال أبوالوليد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس».

وأما عن النهضة الأدبيّة فإن ما عرف الناس، منها على عهد المرابطين ثم الموحدين أعظم بكثير مما عرفوه على عهد من قبلهم، والمجموعات الأدبيّة الكثيرة التي تضم عدداً عديداً من أسماء الشعراء والكُتَّاب النابغين فــي المغرب والأندلس إنما صُنفت فــي أيام توحيد المغرب وبأسماء ملوكه وأمرائه، مثل قلائد الفتح بن خاقان وذخيرة ابن بسام وصفوة الجراوي وما إليها، وهي الدواوين التي تضمَّنت طلبة الصاحب بن عباد، ولو رآها لما قال كلمته تلك، ولكن أنى له أن يراها وهي إنما أُلِّفت بعد زمنه فــي عهد اكتمال الشخصية الأدبيّة المغربية وازدهار الثّقافة العربيّة فــي هذه البلاد.

والعجيب من المستشرق رينهرت دوزي فــي ادعائه أن الحياة الأدبيّة بالأندلس قد اضمحلت بعد استيلاء المرابطين عليها، وها نحن أولاء نرى العكس وقد خطَّأه فــي ذلك المستشرق الإسباني كارسيا كوميس ولكنه عاد فوقع فــي مثل خطئه بحكاية الأقوال الصبيانية التي نسبها بعض الموتورين إلى يوسف بن تاشفين، وهي عقدة يصعب على الكُتَّاب المسيحيين أن يتخلَّصوا منها مهما تحلَّوا بصفة الإنصاف.

والآن نذكر بعض الأعمال التي قام بها أفراد من المغاربة فــي سبيل نشر الثّقافة العربيّة الإسلامية ورفع لوائها الخفَّاق فــي كثير من الآفاق.

فإلى جانب طارق بن زياد ويوسف بن تاشفين يجب أن يُذكر الأمير أبوبكر بن عمر اللمتوني الذي تنازل عن الملك لابن عمه يوسف ومضى

هو ينشر الدعوة الإسلامية وفــي ركابها طبعاً اللّغة العربيّة بين أقطار إفريقية الغربية، فزهد فــي المال والجاه والنعمة بأرض المغرب الفيحاء ودخل الصحراء التي يلفح سمومها ويقتل حرها وتوغَّل فــي بلاد السوادين مبشراً بكلمة الله مُقدِّماً بين يديه المصحف الكريم، فلم ينتهِ حتى وصل إلى حدود غينيا، وهكذا خفقت راية الإسلام فوق السينغال ومالي والنيجر، وتبع ذلك انتشار العلوم الإسلامية والعربيّة التي ما فتئت جامعة القرويين تغذي أبناء هذه الأقطار بلبانها حتى يومنا هذا.

وعلى ذكر القرويين فإننا لا نغفل دور هذه الجامعة فــي خدمة الثّقافة العربيّة الإسلامية وتقدُّمها ونشرها فــي أقطار المعمور. ونقول فــي أقطار المعمور ونحن نعني ما نقول، فقد كرع من حياضها رجال لا يحصون من أهل المشرق والمغرب ومن أوروبا أيضاً وظلَّت منذ تأسيسها سنة 245هـ وهي منارة إشعاع فكري فــي العالم الإسلامي إلى جانب شقيقاتها جامعة الزيتونة وجامعة الأزهر وجامعة النجف الشيعية، ويطول بنا الحديث لو تتبعنا ذكر النابغين من أبناء المغرب فــي مختلف العلوم إسلامية وقديمة، ولذلك فإننا نكتفــي ببعض الأمثلة التي فيها غنية عن الإكثار، ونبتدئ بالعلوم الإسلامية لشرفها ففــي هذا الميدان من الاختصاص العلمي لا نقدِّم إلّا شخصاً واحداً وهو القاضي عياض الذي قِيل فيه:

مشارق أنوار تبدت بسبتة

ومن عجب كون المشارق بالغرب

وسبتة هي بلدة، وفــي هذا البيت ثورية بكتابه «مشارق الأنوار فــي غريب الحديث والآثار»، وهو كتاب من الشهرة بمكان، وقد قِيل فــي

إجابة صاحب هذا البيت:

وما فضل الأرجاء إلّا رجالها

وإلّا فلا فضل لترب على ترب

وكان هذا الفاضل محدثاً وفقيهاً وأديباً ولغويّاً كبيراً، وخلَّف من الكتب الممتعة ما جعله أحد أعلام الفكر فــي العالمين الإسلامي والعربي، وترجمه بصفته الأدبيّة الفتح بن خاقان فــي قلائده، وألَّف فيه العلامة المقري كتابه «أزهار الرياض» وهو يقع فــي أربعة مجلدات.

ومن كتبه الإسلامية الشهيرة كتاب «الشفا» هذا الكتاب الذي غزا العالم كلّه، عربيّة وعجميّة، بحيث أصبح من الكتب المقدَّسة التي يُتبرَّك بتلاوتها ويُستشفــى بقراءتها، وهو فــي تحليل حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – وسيرته والذب عن المطاعن والشبهات التي يوردها الملاحدة فــي هذا الصدد.

واشتهر كذلك من كتبه التاريخية كتاب «المدارك». وضعه فــي حياة الإمام مالك وأصول مذهبه وترجيحه على المذاهب وتراجم كبار أصحابه والفقهاء من أتباع مذهبه من أهل الأقطار الإسلامية، ويقع فــي أربعة مجلدات.

وكتبه كثيرة يضيق المقام عن تتبعها، ويكفــي من القلادة ما أحاط بالعنق.

ومن نبغاء أهل المغرب فــي علم العربيّة من جاذب سيبويه حبل الذكر وتقمَّص معه جلباب الشهرة وهو ابن أجروم، فذاك ألَّف (الكتاب) فضمنه

علم النحو بجميع قواعده وشواهده وعصم لسان العرب من اللحن على كونه أعجمياً، وهذا وضع (الأجرومية) فجعلها مقدِّمة الكتاب ومدخلاً له لم يلجه أحد إلّا من بابها، وغير زمان طويل لم يكن اعتماد العرب فــي تثقيف ألسنة أبنائهم إلّا عليها مع كون صاحبها أعجمياً أيضاً، ولقد بلغ من تقدير العرب لهذا الرجل ومقدِّمته الصغيرة أن أطلقوا اسمها على علم النحو فقالوا (الأجرومية) وعنوا النحو حتى التبس ذلك على أحد الأعلام من رجال النهضة الحديثة وهو الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلّة «المقتطف»، وظن أن العرب أخذوا هذا الاسم من لفظ Grammaire اليوناني الأصل الذي يعني النحو.

وفــي علم اللّغة ناهيك بابن الطيب الفاسي الذي أربت كتبه على الخمسين من أعظمها فائدة وأكثرها عائدة حاشيته الكبرى على قاموس الفيروزآبادي التي استقى منها كثيراً شارحه الشيخ مرتضى الزبيدي فــي تاج العروس واعترف بأنه شيخه فــي هذا العلم.

أما الشعر والأدب فعندنا الشاعر ابن حبوس الفاسي وهو يعدل بابن هانئ متنبي المغرب والكاتب أبوجعفر بن عطية ويعدل بابن زيدون والشاعر الجراوي صاحب كتاب «صفوة الأدب» المعروف بالحماسة المغربية، والأديب الشاعر المتفنن مالك بن المرحل.

وكان غاية فــي النوادر والملح والأخبار، وامتاز من بين شعراء المغرب بتنوُّع مقاصده وكثرة أغراضه وسعة عارضته وقوة ملكته، وله عِدّة دواوين شعرية ومؤلَّفات فــي اللّغة والأدب وفنون المحاضرة منها كتاب «الضرب بالعصا والرمي بالحصى» الذي حاور فيه ابن أبي الربيع النحوي

وغيره، ويشبهه فــي المتأخرين ابن زاكور الأديب الشاعر المؤلِّف، وله ديوان شعر معروف وشرح على ديوان الحماسة سمّاه «عنوان النفاسة»، وشرح على قلائد العقيان وكتب أخرى من هذا القبيل.

وبين ابن المرحل وابن زاكور شعراء آخرون كثيرون لا فائدة فــي ذكر أسمائهم من غير ذكر لآثارهم، ومعاصر ابن زاكور محمد بن الطيب العلمي وحده ترجم فــي كتابه الأنيس المطرب لاثنى عشر أديباً من أهل عصره، وذكر جملة من أشعارهم ورسائلهم فيها الكثير الطيب، بل إن معاصرنا المرحوم محمد غريط قد ذكر فــي كتابه «فواصل الجمان» نحواً من ثلاثين أديباً ممن أدركهم هو وترجمهم بطريقة النشر الفَنّي الذي كان بارعاً فيه، فالمجال فــي هذا الباب واسع وما ألممنا به منه فيه مقنع.

وإذا الفتنا إلى فَنّ التاريخ والتراجم فإننا نرى رصيد المغرب فــي هذا الفَنّ مما يغني ويقنى، فالمراكشي وابن عذاري وابن أبي زرع وابن القاضي والفشتالي والأفراني والزياني والناصري وابن جعفر الكتاني وابن زيدان وغيرهم أسماء لامعة خدمت التاريخ السياسي والأدبي لهذا الجناح من العالم العربي خدمات جلى لولاها لساد الظلام على فترات تاريخية من حيوات أجيال يهم كلّ عربي أن يعرفها لارتباطها بماضي موطنه الكبير ولما تشتمل عليه من أحداث وأعمال يحق له أن يفخر بها ويعدّها من مآثر أمته العظيمة.

ولا ننسى الجغرافيا والرحلات فالشريف الإدريسي كان أول من وضع خريطة مُدقَّقة للعالم بعد بطليموس، وقد صنعها فــي شكل كرة من

الفضة ومثَّل عليها أقسام اليابس والماء، وتحرَّى فــي ذلك ما لم يتحره أحد قبله، بحيث بقيت خريطته هذه مدى سنين أصح خريطة للعالم، وألَّف كتاب «نزهة المشتاق فــي اختراق الآفاق» فسَّر فيه هذه الخريطة وتوسَّع فــي جغرافية الأرض فلكية وعمرانية وطبيعية بما لا مزيد عليه في الدقة التي يمكن أن يتوصَّل إليها العلم آنذاك.

وجاء الرحالة ابن بطوطة بعده فجاب أقطار المعمور وعرف من المجاهل فــي إفريقيا وغيرها ما لم يعرفه أحد قبله وكتب لنا رحلته الممتعة «تحفة النظار» التي ماتزال تستهوي الروَّاد وعشاق الأسفار فــي كلّ بلد حتى الآن.

أما العلوم القديمة أو الكونية التي تُعدّ تراثاً مشتركاً بين الشعوب فإن المغرب لم يقصر فيها عن غاية بلغتها أمة من الأمم فــي العصور السابقة، بل شارك فــي تقدُّمها وعمل على نشرها حتى كان ما أشرق من نورها على أوروبا فــي العصور المتوسطة إنما أشرف عليها من جهته كما مرَّ آنفاً، ومن المشهور أن البابا سلفستري الثاني قد درس بفاس وكان يبهر معاصريه بتفننه فــي العلوم وأنه الذي أدخل إلى أوروبا الأرقام العربيّة المستعملة فيها إلى الآن، وهي أحد الشكلين اللذين كان للعرب فضل ابتكارهما، هذا الشكل الذي أخذه الأوروبيون وبه العمل فــي المغرب، والشكل الذي يُعرف بالهندي وبه العمل فــي المشرق العربي، نص على ذلك الرياضي المعروف ابن الياسمين فــي كتابه «تلقيح الأفكار».

وابن الياسمين هذا كان من الشخصيات العلمية الفريدة، وهو إلى تمكُّنه من الأدب والشعر امتاز بتضلُّعه فــي العلوم الرياضية واشتهرت

أرجوزته فــي الحساب والجبر أيما اشتهار، وهي تتضمَّن خلاصة كثير من القوانين والمعادلات الجبرية التي توجد فــي كتب الجبر الحديثة، كما له كتاب «تلقيح الأفكار فــي العمل برسوم الغبار» يعني الأرقام الحديثة بشكليها المذكورين، وهو كتاب قيِّم جمعه من مذكراته التي كان يلقيها على طلبته فــي العلوم الرياضية.

وبجانب ابن الياسمين يذكر ابن البناء العددي الذي طبقت شهرته الآفاق ورفع من ذكر بلده مراكش بما نبغ فــي علوم العدد والحساب والهندسة والنجوم وقد تُرجمت كتبه إلى اللّغات الأوروبية من زمن طويل، وتبنَّى بعض الرياضيين بعض نظرياته فــي هذا الصدد كما كشف الستار عن ذلك الرياضي الفرنسي شال. ومن شدَّة تأثير كتبه فــي تقدُّم العلوم الرياضية أن كلمة almaach التي تفيد معنى التقويم الزمني إنما أُخذت من اسم كتابه «المنهاج» كما يقول سارطون يعني منهاج الطالب فــي تعديل الكواكب وهو من كتبه المشهورة، وله فــي الحساب كتاب «التلخيص» سار كلّ مسار وكتبت عليه الشروح العديدة، وقال فيه ابن خلدون «إنه ضابط لقوانين أعماله مفيد» وله أيضاً رفع الحجاب وهو أكبر من التلخيص قال عنه ابن خلدون «وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظِّمه وهو جدير بذلك» إلى كتبٍ أخرى فــي الفلك والهندسة والفلاحة والعلوم الروحانية.

وكان أبوعلي الحسن بن علي المراكشي من أعظم رياضيي العرب فــي القرون الوسطى اعترف له بذلك علماء الغرب المحدثون وهو صاحب كتاب «المبادي والغايات فــي علم الميقات» الذي يقول فيه صاحب كشف الظنون «إنه أعظم ما صُنف فــي هذا الفَنّ» ونوه سيدبو بصواب

تصحيحاته فــي الجغرافيا الفلكية وبسبقه إلى استعمال الخطوط الدالة على الساعات المتساوية فإن اليونان لم يستعملوها قط.

ولو ذهبنا نذكر جميع الرياضيين المغاربة، وخصوصاً الفلكيين منهم وما لهم من آثار لما وسعنا هذا المجال الضيق وفــي خزانتنا من تآليف علماء المغرب فــي هذا العلم فقط عشرات الكتب والرسائل فما بالك بما فــي غيرها، بل بما اندثر ولم يبقَ له أثر.

ونبغ فــي الطب يوسف بن سمعون اليهودي رفيق موسى بن ميمون وزميله فــي العمل وأبو العباس الجزنائي الذي كان كاتباً وشاعراً وفيلسوفاً وطبيباً وكيميائياً، وأبوالقاسم الوزير صاحب كتاب «المفردات الطبية» المشهور وأسرة أدراق التي تسلسل الطب فــي عِدّة من أفرادها وابن شقرون المكناسي صاحب الشقرونية فــي علم تدبير الصحة، وأبوالقاسم الغول وله أيضاً نظم طبي مُبوَّب أحسن تبويب.

وبكَّر المغاربة بوضع دوائر للمعارف العامّة قبل أن يظهر هذا النوع من التأليف فــي العصر الحديث بقرون عديدة، ومن أحسن ما ينطبق عليه هذا الوصف كتاب «الأقنوم فــي مداخل العلوم» لعبدالرحمن الفاسي، تكلَّم فيه على نحو مئة وخمسين علماً فاستوعب مباديها واستوفى حدودها بأوجز عبارة وأوضحها وهو نظم فــي الرجز فــي عِدّة آلاف بيت.

هذا ولم نشر إلى تخليد الآثار وعمارة الأماكن والديار، فمصر وأهرامها وبغداد وقصورها والحمراء وزخارفها لا يمكن أن تغطي على ما شاده المغاربة من مصانع هائلة، وما أنشأوه من مدن عامرة وما ابتدعوه من فَنّ جميل، فلئن بنى المنصور بغداد والمعز القاهرة فلقد بنى إدريس

الثاني فاس وابن تاشفين مراكش. وتانك عاصمتان إسلاميتان كبيرتان فــي إقليمين متباعدين، وهاتان عاصمتان إسلاميتان كبيرتان فــي إقليم واحد طالما زهيتا على عاصمتي الشرق بملوكهما وجيوشهما وعلمائهما وأدبائهما حتى لقد قِيل كثيراً إن بلاطيها كانا يموجان فــي مناسبات مختلفة بما لم يعهد فــي بلاد بغداد من أفواج الكُتَّاب والشعراء والفلاسفة والمؤرِّخين والفقهاء وغيرهم.

وإن تنس من المصانع الهائلة الدالة على علو همة منشئها، لا تنس المآذن الثلاث: الكتبية بمراكش والخيرالدة بإشبيلية وصومعة حسان بالرباط.

تلك الأثافــي التي تقوم دليلاً على عظمة فَنّ المعمار بالمغرب والتي لو لم يكن للمنصور الموحدي أثر إلّا هي لكفى، وكذلك يُقال فــي مآثر السلطان مولاي إسماعيل العلوي ومنشآته بمكناس التي حار الناس فــي أمرها فنسبوا صناعتها إلى الجان، وقديماً نسبت العرب كلّ أمر غريب إلى عبقر.

أما فــي باب زخرفة البناء وتشييده بالكلس والجص وصنع المقربصات البديعة وتلوينها وتهذيبها ونظم قطع الفسيفساء الجميلة وتنسيقها والكتابة والنقش على الجص والخشب بكلّ تنوق وتفنن فهذه آثار بني مرين بفاس وغيرها ومن أعجبها مدارسهم العلمية الشهيرة، وهذه قبور السعديين بمراكش كلّها تشهد بما لهذا المغرب العظيم من السبق فــي مضمار الفنون الجميلة والإبداع فــي هندسة البناء الرفيعة وليس العيان كالبيان.

إن هذه الأعمال الكبيرة التي ذكرناها والشخصيات العظيمة التي قدّمناها لو حذفت من التاريخ لطويت صحف من أعظم صحف المجد والخلود

للأمة العربيّة ولخسرت الإنسانية جانباً من التراث الفكري والحضاري الذي تعتز به الآن.

وهذا خير تقويم لمساهمة المغرب فــي تقدُّم الثّقافة العربيّة، بل أقربه إلى الإنصاف وأقلّه تبجحاً، ولَعلّ من المناسب أن ننقل عبارة شهيرة للشيخ محمد بيرم التونسي صاحب كتاب «صفوة الاعتبار» جاءت فــي كتابه هذا وهي قوله:

«لعمري أن صناعة الإنشاء فــي الدول باللّغة العربيّة كادت تكون الآن مقصورة على دولة مراكش»، فإذا كان هذا الفاضل قد سجَّل ملاحظته هذه عن تفوق المغرب فــي العالم العربي فــي وقته فــي فَنّ الإنشاء (وهو يعني كتابة الرسائل الديوانية) فكم من باب من أبواب المعارف ينتظر تسجيل ما للمغرب من يدٍ كانت وماتزال ذخراً للعروبة وفخراً.

«المجلّة» - يونيو 1965

عبدالله كنون..
التقليد والتجديد

(حوار أجراه: محمد بنيس ومحمد البكري)

م. بنيس- نبدأ بالمحور الأول وهو المتعلِّق بالمثقّف والشاعر. نريد أن نعرف ما هي الخطوات الأولى لانجذابكم نحو الأدب والعمل الثّقافي.

ع. كنون – دراستنا الأولى كانت مُنصبَّة على العناصر الضرورية للتثقيف، اللّغة وما يتعلَّق بها، ثم ما كانت الدراسة تدور حوله، أي الإسلام والتشريع الإسلامي، وعلومهما. ولا أذكر لفظة الثّقافة لأنها لم تكن مُستعمَلة آنذاك فيما بين الطلبة وأهل العلم. وكان مدلولها لغوياً محضاً. التثقيف الذي يأتي من أصل ثَقِفَ الشيء عَلِمَه أو ثقف اللسان أو الرمح.. ما كان يُستعمل هو التحصيل، والإنسان يحصِّل جانباً من المعرفة في الاتجاه الذي يفضله. كانت جماعة من الطلبة تفضل دائماً الفقه وما إليه، لأنهم ينظرون إلى مستقبلهم ولا يضمنون هذا المستقبل إلّا في هذه الدائرة الخاصّة، فيكونون إما عدولاً أو قضاة، فهم كانوا يحضرون لهذا المستقبل في الدروس الثّقافيّة المتعلِّقة بالتشريع الإسلامي والفقه. وهؤلاء

أغلبهم من البادية، ونظرتهم هذه صحيحة، لأنهم سيرجعون إلى قراهم، فيتعلَّق الناس بهم، ويسألونهم عن مسائل الدين والرسوم والعقود والدعاوى، فيجب أن يجدوا لديهم جواباً. وكلّ واحد منهم يتعلَّق أول ما يتعلَّق بالعدالات ثم ينظر إلى القضاء. فهذه طبقة من الطلبة كانت غايتها هي أن تتثقّف أو أن تُحصِّل، وهذه هي اللفظة الملائمة، وكثيرون كانوا لا يحضرون معنا في الدروس الأخرى. وإن كان هذا لا ينفي أن من بينهم بعض الأفذاذ القلائل الذين كانوا يهتمون، أيضاً بقضايا الفكر، والعلم، والتحصيل العام.

الطلبة الذين كانوا نبهاء، كانوا يتخذون القدوة من أساتذتهم، يقارنون بين هذا والآخر، فيجدون بعض المميِّزات التي لا تُوجد في باقي الأساتذة، بل لدى واحد منهم أو اثنين أو ثلاثة، فيلازمون هؤلاء، وكما يقال: «لا تعرف خطأ شيخك إلّا إذا جالست غيره». دائماً كان هناك علماء يخوضون في مختلف العلوم التقليدية، ويعطون المُثل ويقدِّمون النصيحة للمطالب، حينئذ تتفتح أفكاره على ما ليس يُقبِل عليه الجميع.

لكن بالنسبة للأدب فالواقع أنه لم تكن هناك ثقافة أدبيّة رسميّة، أو مطروحة في الساحة، بل كان الذين يتشوَّقون لهذه الثّقافة يلاحقون ويتابعون الشخص الذي يعتقدون أنه كفء، وأنه قادر على مدِّهم بعطاء أدبي. يُعرف عنه أنه يكتب رسالة ممتازة، ويخطب خطبته من صنعه. لا من الكتب المطبوعة للخطب، أو هو في بعض الأحيان يكون في شغفه بالأدب يقترح دروساً على الطلبة، يقول: تأتونني في الوقت الفلاني، خارج الأوقات التي نعمل فيها. لنقرأ كتاباً أدبياً. فكثير من الطلبة كانوا متفتحين، يحضرون لهذه الدروس فيتكونون. ومع ذلك فإن مثل هذا التكوين لم

يكن يكفي، لأن أغلب هؤلاء كانت ثقافتهم أو حصيلتهم العلمية قديمة- وليس هذا- بنقيصة- لكن بالنسبة لمن يطمح للجديد، عليه أن يبحث في مجالات أخرى، وأنا من الجيل الذي لما فتح عينيْه- لحسن الحظ- كانت في العالم العربي حركة ونهضة وتجديد، ولم يمرّ المغرب بهذه التجربة، تونس هي الأخرى لم تمر بها. كان ذلك في مصر والشام، (ونقصد بالشام سوريا الكبرى والعراق) فكانت الكتب والمجلّات والصحف تفد علينا من الشرق نطّلع فيها على ما لا نعثر عليه عندنا. والصحافة التي كانت عندنا في المغرب كنا نجد فيها كلاماً فارغاً لا حصيلة له، كانت صحيفة «السعادة» مثلاً، وكذلك صحف تأتي من الجزائر وتونس، وكلّها كلام عادي لا حاجة تجذبنا إليه.

م. البكري- ما هي المجلّات والصحف التي كانت أكثر رواجاً بين الطلبة المتنورين في «القرويين»، أو في غيرها من مراكز التعليم المغربية؟ وكيف كنتم تحصلون عليها؟

ع. كنون - هذه الصحف كنا نحصل عليها بصعوبة، لا لأنها كانت ممنوعة، ولكنها قليلة، فالتوزيع غير مُنظَّم، ونحن الذين كنا دائماً نقترح على الكتبي أن يأتينا بهذا الكتاب أو ذاك من الكتب التي كنا نجدها في قوائم الإعلانات. وتمرّ مدة طويلة حتى يصل الكتاب. يمكن أن تطول المدة سنة أو سنتين. وكذلك تأتي الصحيفة أو المجلّة بغير انتظام، وكانت أعظم مجلّة في نظري هي «المقتطف»، التي أدت خدمةً للّغة العربيّة والمثقّف العربي. كانت مجلّة تكتب في الأبحاث العلمية، إذ نشرت ترجمة لنسبية اينشتاين، وكنت أتتبعها وأتعمق فيها، وتكتب «المقتطف» بلغة عربيّة معمقة، وتراجم بعض الأشخاص، وأخبار مُنوَّعة. هذا كان في

الثلاثينيات، وقبلها في باقي العشرينيات ونحن كنا صغاراً، ومن هم أكبر منا كانوا يقرأون «المؤيد» و«اللواء». وهذه الصحف كانت تصل منها أعداد مُتفرِّقة. فتحت عينيّ فوجدت بعضها، لأن أخي محمداً كان يشتريها، وكذلك أبي، حتى الاستقلال.

وكنت جمعت عشرات الآلاف من الصحف من العالم العربي، وأهديتها للخزانة العامّة في الرباط، لأنني لم أعد أجد لها مكاناً في بيتي، جمعتها وأرسلتها في أربع عشرة قطعة كقطع التجار. أتيت بالخيش وناديت على من جمعها وأرسلتها على رحلتين. هناك: «الأهرام»، «الجامعة العربيّة»، وكانت تصدر بالقدس، عن الهيئة العربيّة العليا لفلسطين، وهناك أيضاً صحف تونس، مثل «نشيد الأمة»، «الزهراء». ومن الجزائر «النجاح». فهذه كلّها كانت تأتينا بمادة تطوِّر بها معلوماتنا ومعارفنا. والكتب تميِّز هذه الفترة، ولها ميزة يمكن أن أقول إنها غير موجودة الآن، وكانت تختص بالعالم العربي، ولا أظن أنها كانت في جهات أخرى، حتى في العالم العربي، إذ كان المثقَّفون العرب بالإنجليزية بالفرنسية، بالإيطالية وبالروسية، يترجمون أدب مرحلتهم، فنحن قرأنا تولستوي ودوستويفسكي في ذلك الوقت.

كانت الترجمة مزدهرة على يد أدباء فلسطين، ولبنان، وسورية، ومصر، وهي ظاهرة مدهشة فــي الثّقافة العربيّة، من خلالها تعرفنا إلى العالِم «فيكتور هيجو، راسين، غوته» أسماء كثيرة وأعمال عالمية.

طنجة ليست كفاس، الطلبة الذين كانوا يقرأون معنا هم من حافظي القرآن والمتون، فلم أكنْ أستفيد منهم شيئاً على الإطلاق، كنت أصغرهم،

وكلّهم باللحى، كلّهم فقهاء، عكس ذلك كنت أخالط طلبة المدارس العصرية، فهم يميلون إليّ ليأخذوا العربيّة، وينظرون إليّ نظرة تعجُّب وأنا صغير.

كان لدينا فــي طنجة طبيب يُسمَى هيمنالجي، وهو مدير معهد باستور للأبحاث، كان منقطعاً للعلم، ترك زوجته وأولاده بفرنسا وجاء للمغرب، كان يلتقي بنا، أصدقائي يتكلَّمون معه بالفرنسية فيقول لهم هذا «Savant» (عالِم)، أحدثكم عن الثلاثينيات.

م. بنيس – هذا حدث فــي طنجة، متى غادرتم فاس وأتيتم إلى طنجة؟ ولماذا؟

ع. كنون – جئنا فــي العام 1933 السبب هو أبي وعمي، أرادا الهجرة، لأن البلاد خاضعة للاستعمار، وكان ضرب فاس مثل ما وقع لدمشق، إنما حادثة دمشق سجلها شوقي، وليس لنا فــي المغرب مثله، ضربوا فاس وأطاحوا صمعة باب الكيسة، كنت صغيراً آنذاك، أخرجني أبي، وذهبنا لنرى سقاية «سيدي بوغالب» وهي مُهدَّمة، فيما بعد عرفت أن الفرنسيين هم سبب ذلك، وقعت قضيّة الهدنة، وبعد اليوم الدامي فرض الفرنسيون على أهل فاس ضريبة قيمتها مئتا ألف ريال، وتسليم السلاح الذي بحوزتهم، قام الحاج التهامي، وحمزة الطاهري، واضطرا إلى جمع مئة ألف ريال «وهي تساوي أكثر من مليار درهم الآن»، وأخرج الناس ما لديهم من سلاح يرمونه خارج بيوتهم، وكان شخص يُسمَى عمر الريفي، وهو عميل الفرنسيين، يطوف فــي فاس لمدة ثمانية أو عشرة أيام، يطوف ويلقي القبض على أبناء فاس، يأخذ خمسة عشر أو عشرين شاباً إلى «باب الفتوح»، حيث المقبرة، ويطلب منهم حفر

قبورهم بأيديهم، ثم يرميهم بالرصاص، ويدفنهم فيها، طالت المدة ثمانية أو عشرة أيام، ذهب الناس إلى المسؤولين، قالوا: هذا كثير، ماذا وقع؟ الجيش ثار على مدربيه لأنهم أهانوه، ضربتم فاس بالمدافع وماذا تريدون؟ واتفقوا على الغرامة وتسليم السلاح، (وبالمناسبة هذا السلاح هو المعروض «بدار السلاح» بالبطحاء)، حكى لي أبي حالة العلماء، قال: نادوا علينا ثم صعدنا إلى «دار البطحاء»، وأجلسونا فــي دهليز طويل، كلّ الناس جالسون. قال لي: أنا وأخي كنا نرى أقراننا فــي السن، ومن هم أكبر منا، ومن هم أصغر منا، الكلّ مجموع، تركونا ساعة ننتظر ثم جاء النصراني، كان هذا آنذاك بمثابة المستحيل فــي فاس، لأن هناك من العلماء من لم يرَ النصراني، كان يدخن ويتبختر فــي السير رافعاً رأسه، بعد هذا أدخلوهم، جمعوهم، جعل أهل فاس أحمد بلخياط رئيساً، ثم الفقيه الحجوي واسطة بينه وبينهم. من جلس هناك؟ جلس فرنسي يتكلَّم العربيّة مثلنا، قال: أنتم العلماء، ماذا تدرسون؟ ثم بدأ يستنطقهم بشأن «القرويين»، ماذا يقرأون فيها؟ وماذا يدرسون؟ وما هي ساعات كلّ واحد؟ وما عمل كلّ واحد؟ ومن هو هذا الشخص ومن هو ذاك؟وبعده غادروا «دار البطحاء»، واتجهوا نحو جامع «الشرابلين».

م. بنيس - إذن هل انعكست هذه الأحداث فــي الشعر المتداول بين الطلبة آنذاك أم لا؟

ع. كنون - كانت الانعكاسات قليلة فــي بعض الكتابات، أو بعض الأشعار، لكن من قبيل الشعر الذي قِيل فــي رثاء الأندلس، وهذا النوع متوفِّر فــي «فواصل الجمان» لغرنيط، ولكن ليس بالصفة الوطنيّة التي كانت تُقال فــي الشرق، وعلى العموم، الشعراء الذين كانوا ينظمون

الشعر آنذاك ويمكنهم تسجيل مثل هذا الحدث كانوا كباراً فــي السن، دُهشوا أمام القوة التي جاءت وهي أكبر منهم، يكفيك أنهم قاموا بثورة على مولاي عبدالعزيز وأعلنوا مولاي عبدالحفيظ بدله، ولكنه هو الآخر لم يستطع أن يواجه، ولديه قصيدة بعنوان «الطامة الكبرى» عن الحماية، ولديه مراجعات بينه وبين جريدة Le temps التي كانت آنذاك تصدر فــي فرنسا، وكانت نُسبت له أنه هو المسؤول عن مذبحة فاس، ولست أدري هل كان بإسبانيا أم ذهب إلى فرنسا عندما كتبت Le temps، وردّ هو يقول بأنه غير مسؤول، كباركم هم المسؤولون، هذا يلزمه بحث، وتسجيل هذا الحدث لم يكن ممكناً لأن الأفكار لم تكن نضجت بعد، ولم يستطع الناس التعبير بصراحة أو شجاعة، سيأتي جيلنا الذي سيخترق الأسوار دون أن يخاف.

م. البكري – يُحكى أن مولاي عبدالحفيظ له كتاب فــي تاريخ المغرب؟

ع. كنون – له مذكرات لم تظهر بعد، ربما حجزتها فرنسا بعد موته، لأن لفرنسا لصوص كتب، يذهبون هم أولاً لأخذ ما يريدون، ثم يتركون الباقي، ولا أعتقد أن هناك سجلاً أدبياً مهماً يمكن تقديمه كانعكاس لهذا الحديث.

م. بنيس – كيف كان تكوينكم هذا (ثقافياً)؟

ع. كنون، لما أتيت إلى طنجة، كنت صغيراً، دخلت مع أخي – وهو أكبر مني – إلى السيد، أخي الكبير كان قد حفظ القرآن فــي فاس، واصل دراسته على يد أبي وعلى يد علماء آخرين فــي فاس، كان منهم موظفون كبار، فــي دار النيابة (وزارة الخارجية)، مستشارون، رئيس الاستئناف،

أحدهم كان أكبر من أبي سناً، هو عبدالسلام الغازي، من العلماء الذين قاموا ضد مولاي عبدالعزيز فــي فاس، وهو من المتمكنين فــي اللّغة العربيّة، والبلاغة، زيادة على الفقه، جيء به من فاس لتفحُّص رسوم الأجانب العقارية.

وأنا كنت أحب قراءة «الخزرجية» فــي العروض، وأقول لأبي «أخبره أني أريد قراءة الخزرجية عليه» فطلب أبي من الفقيه الغازي أن يدرسني «الخزرجية»، فقبل، وحدَّد لي موعداً قبل الثامنة صباحاً، قبل توجُّهه للعمل، كانت له مشاركة فــي الشعر، ولكنك تعلم أننا نادراً ما نجد شاعراً فــي المغرب ينقطع للشعر، مثل شوقي، أو غيره من شعراء المشرق.

قرأت «الخزرجية» على الفقيه الغازي بطلب من والدي له، والتحق بنا طلبة طبعاً، وهذا ليس فــي المنزل، بل فــي المسجد، كانت لأبي ثلاثة دروس يومية، وأنا دون الطلبة كنت آخذ سبعة دروس فــي اليوم، سبع حصص يومية، من بينها ثلاث يدرسها لي أبي، واحدة فــي الليل، وحصتان فــي النهار.

م. بنيس – ما هي هذه الدروس؟

ع. كنون – دروس فــي الفقه، فــي الحديث، فــي التفسير، فــي اللّغة العربيّة، خصوصاً النحو والصرف، وأحيانا تكون البلاغة والبيان والمعاني والبديع، ثم هذه «الخزرجية».

م. البكري – إذن ثقافتكم كانت كلّها حُرّة، وفــي الوقت نفسه تجمع بين المساجد والبيت، ولكن الأب كان له دور كبير.

ع. كنون – الأب كنا نراه نادراً، لأنه كان مشغولاً بدروسه، ويمكن أن أذكر هنا مرحلتين أساسيتين: المرحلة التي كنت فيها أحب الذهاب إلى فاس لأختبر معرفتي، أذهب إلى فاس، وأحضر دروس العلماء الكبار الذين أعرفهم، ويدوم ذلك مدة أسبوع أو أسبوعين، مرّة ذهبت فوجدت الدروس غير منظّمة، هذا العالِم لا يحضر اليوم، ذاك لم يأتِ البارحة، تنظيم ضعيف، صعدنا أنا وابن عمي فـي عقبة «الطالعة» فوجدنا مولاي عبدالله الفضيلي، وهو من العلماء المعروفين، ذهبنا، سلمنا عليه، فسأل عني: من هذا؟ قال ابن عمي: هذا ابن عمي، من طنجة، قال لي: أتيت لتدرس هنا؟ قلت له: أية دراسة عندكم هنا بفاس؟ قال لي: تدرسون «الشيخ خليل»؟ قلت ثلاثة أساتذة؟ الأصول؟ قلت أستاذان وأضفت: «أنتم لا تدرسون الحديث»، فذكر لي أن الحديث لا يدرس بفاس، وكان هذا عكس مدينة طنجة، البخاري، مسلم، الموطأ، ونزعت من بالي فكرة العودة إلى فاس، والمرحلة الثانية هي التي سافر فيها عبدالخالق الطريس، الفقيه الطنجي، المكي الناصري، عزيمان، كلّهم سافروا إلى مصر بقصد الدراسة، كدت أصاب بالجنون، كنت أنا الآخر أريد السفر لأتفتح أكثر أبكي ليل نهار، أمي قبلت بفكرة سفري، أما أبي فلم يقبل، وأقسم ألّا أفارقه.

ولا أقول بأن هذه الدروس، وهذه العلوم، هي ما شكَّلت حصيلتي، أو ما حدَّد تكويني، ذكرت سابقاً المطالعة، مطالعة الصحف والمجلّات، والكتب الوافدة علينا من المشرق، ألتهم الكتب، كتابين فـي اليوم من الحجم المتوسط، من هنا كان التكوين الثّقافـي العام، كذلك الفرنسية التي أخذت فـي دراستها، أما الإسبانية فقد تعلمتها من الشارع، وأصبحت

أتقنها فيما بعد.

أصدقائي الذين كانوا يعلمونني الفرنسية وأعلمهم العربيّة، وهم من تلاميذ المدارس العصرية، كانوا يتوفَّرون على كتب فرنسية، وكان يكفيني أن أرى عنوان الكتاب لأحفظه، السينما أيضاً كنت شغوفاً بها. عنوان الفيلم بالفرنسية يظل ثابتاً فــي ذاكرتي، وهذا هو الأساس، ولا أُنكر أن المعرفة لا تتم إلّا بالتفاعل فكلّ معرفة تفيد فــي إضاءة المعرفة الأخرى. لذلك فأنا كنت أجد ما ينفعني فيما أقرأه، دائماً هكذا كانت الدراسة، والمراحل الأولى من التثقيف، فمنها ما هو تقليدي، ومنها ما هو عصري، وابتدأت الكتابة.

م. بنيس – متى بدأت فــي الكتابة، وكيف بدأت؟

ع. كنون – فــي البداية كانت الكتابة على الطريقة التقليدية، أبي وعمي وجدي جميعاً كانوا يكتبون بالطريقة التقليدية، من شرح، وتلخيص، ومازلت أتوفَّر على بعض المشاريع التي يعود البدء فــي إنجازها إلى مرحلة الشباب، وهذه المرحلة التقليدية بالذات، ولي كتاب يعود هو الآخر لتلك الفترة، وقد أنهيته.

م. البكري والشعر متى بدأ؟

ع. كنون – نعم، الشعر كان قبل هذه الفترة التي نتحدَّث عنها الآن، مشروع تأليف الكتب كان لدي وأنا ابن ست عشرة سنة، أما الشعر فكان قبل هذه السن، مثلاً، نظمت قصيدة أقول فيها عن ثورة عبدالكريم الخطابي:

لدولة الريف فضـل وعزة لا تذل

وكره فـي الأعـادي ثورة لا تزل

عبدالكريم أمير بشعبها مستقل

هذا قلته وأنا ابن اثنتي عشرة سنة، صغير، صغير جداً، لكن يمكن ذكر أن ما كتبته آنذاك كان على نمط الأغراض الشعرية العربيّة التقليدية من مدح ورثاء وغزل، كتبت كثيراً، وتبيَّن لي أن هذا لا معنى له، فمزَّقت كلّ ما كتبت، انتبهت إلى جبران خليل جبران، بدأت أتأثر به.

م. بنيس – إذا سمحت سنعود إلى جبران فيما بعد، وما يهمني الآن هو التالي: نعلم أن صفة «فقيه» كان معيار العلم والاعتراف بالعلم فـي تلك المرحلة، وهو خريج «القرويين» بفاس أو «ابن يوسف» بمراكش، هل كان الشاعر يجرؤ على إعلان شاعريته؟ وكيف كان المجتمع ينظر إليه؟ خاصّة ونحن نعرف الفهم السائد آنذاك لموقف القرآن من الشعر، بمعنى آخر هل يمكن الحديث عن تمجيد واحتفال بالشعر؟

ع. كنون – يجب أن نفهم مصطلح «فقيه» فهماً تاريخياً فـي المغرب، كلمة «الفقيه» فـي المغرب تعني ما تعنيه اليوم كلمة «مثقّف»، وليس الفقيه معناه أن علمه منحصر فـي الفقه، ومن الاعتبار الذي كان لهذه الكلمة أنها كانت تُطلق على الوزير، تأتي «بصيغة» الوزير، فتقول «الوزير» أو «الفقيه».

تذهب عند القاضي فتقول: «هل الفقيه هنا؟» وهذان استعمالان يدلان على التقدير، يكفـي أن تقول لأي شخص «فقيه» حتى يكون هذا الذكر

تعبيراً عن الاحترام، وقد أخطأ كثير من الكُتَّاب والمؤرِّخين فـي استيعاب معنى هذه الكلمة فـي المغرب، وهو موجود أيضاً لدى المستشرقين، ومن هنا جاءت الحملة على المرابطين - من قِبَلِ دوزي وأمثاله - الذين قِيل عنهم بأنهم سبب فـي تخلُّف الأندلس، بعد سيطرتهم عليها، لأن الفقهاء هم الذين كانوا يحكمون الدولة المرابطية، كان للمرابطين دولة العلماء لا الفقهاء، والحكم عليها بدولة الفقهاء كان من نتائجه القول بأنها سبب ضياع الأدب وتخلُّفه فـي الأندلس. ويقول المراكشي صاحب كتاب «المُعجب» بأن الدم لم يُرَقْ فـي عهد المرابطين إلّا فـي ساحة الحرب.

كلمة «الفقيه» إذن، كانت تطلق على الوزير، والقاضي، والعامل، وحتى على الشاعر.

م. بنيس - ولكن لماذا لا يعلن عن الشاعر كشاعر؟

ع. كنون - هناك نوعان من الشعراء: شاعر يجعل من الشعر مهنته، هذا تغلب عليه صفة الشاعر، وآخر يضيف إلى الشعر اهتمامه بالعلوم، والنوع الثاني هو الذي كان سائداً فـي العصور الأخيرة فـي المغرب، فالشاعر فقيه أيضاً، ولم يكن هناك تأثير أو وجود لما ذكرت بأنه الفهم السائد لموقف القرآن من الشعر، بل ما كان هو أن الفقيه، المشارك فـي العلوم، يرتفع شأنه إذا عُرِفَ عنه أنه ينظم الشعر، فمثلاً البلغيثي كان عالماً، قاضياً، وشيخاً للطريقة «التيجانية»، وله شعر تزداد به قيمته، كان غرنيط كاتباً مجوداً، يكتب بالسجع، وله شعر، وهو نفسه يلقبونه بالفقيه، وأبوه فضول غرنيط، شاعر، وكان هو الصدر الأعظم، يحثّ على الخمر فـي شعره، ولا عيب فـي هذا، هناك عباس النازي، المفتي الكبير

فــي فاس آنذاك، حضر فــي حفل كانت به مغنية تُسمَّى «حديقة» أُعجب بها، فقال:

حديقة دعت الصب المشـــــــوق إلى خلع العـــذار جهـــاراً بين جُلَّاس

أطعت فيها الهوى وما عصيت لها أمراً وإن كنت أدري فيه إفلاسي

وكان الناس يأخذون مثل هذا الشعر على أنه مستملحات فقط، لأن سيرة هؤلاء معروفة بالاستقامة، ولذلك لا أحد ينقص من منزلتهم الاجتماعية، أما غير هؤلاء الشعراء من كانوا «يخلعون العذار» فموجودون.

م. البكري – نريد أن نعرفهم ونعرف وضعهم.

ع. كنون – هناك هذا النموذج بين الناس، دون أن يكون بالضرورة شاعراً، كان الناس يقولون: فلان، فلانة، من أصحاب الملاح، وأنا لم أحضر هذا.

م. البكري – ربما كان هذا النوع من الشعر والأدب مقبولاً لأنه يصدر عن فقيه، ولكن الشخص الذي يمارس مهنة الشعر وحدها، دون غيرها، لا أنفــي وجوده، ولكنه سيكون مُعذَّباً وفــي محنة دائمة داخل المجتمع.

ع. كنون – لا، هذا غير صحيح، أعطيك مثلاً، فــي طنجة كان هناك شاعر يُسمّى عبدالله بلهاشمي، وقد التقى به عبدالله القباج وهو يهيئ كتابه حول «مختارات من شعر العشرينيات فــي المغرب، صدر سنة 1929 فــي الرباط»، وكتب عنه أنه «شيبة أمحمد»، فانزعج لها، وكان بلهاشمي هذا يخوض فــي مختلف المجالات، ومعروف بشعره الخاص فــي المجالس، ولكن شعر السليقة فقط، كنا آنذاك نصارع الطرقية، نكتب

فــي مجلّة «الشهاب» لابن باديس فــي الجزائر ضد عبدالحي الكتاني، وأحمد سكيرج قاضي سطات، وغيرهما، وهم يكتبون فــي جريدة «البلاغ الجزائري»، التي كان يصدرها ابن عليوة فــي الجزائر أيضاً، وهو شيخ طريقة ومتعاون مع الفرنسيين، بلهاشمي نشر قصيدة فــي «البلاغ الجزائري»، يهاجم فيها العصريين، فأتى بصورة مضحكة يقول فيها «ويمشون بالدخان مثل البواخر».

م. بنيس – ننتقل الآن إلى جانب من مكانة الثّقافة العربيّة فــي المغرب. هناك حالات، نسمع عن الدروس السلفية لأبي شعيب الدكالي ومحمد بلعربي العلوي، ولكن أفكارهما بصفة عامة غير مكتوبة فهل كان اسما محمد عبده والأفغاني يذكران فــي مجالسهما العلمية؟ وإذا كانا يذكران فما هي القضايا الأساسية التي كانا يركزان عليها فيما يخص فكر هذين المصلحين السلفيين؟

ع. كنون – كانت دروسهما إصلاحية تُلقى فــي المسجد، وهي هنا بمعنى الإصلاح الديني فــي أكثرها، أولاً: كان «الحديث النبوي» قد ضَعُفَ تدريسه، وبحكم جولة أبى شعيب الدكالي فــي المشرق التقى بمحدثين كبار، وخاصّة فــي الحجاز، مكة والمدينة، ومصر، وقد عاد متشبعاً بالحديث، وهو معروف بنبوغه وروايته، وتركيزه ثم على البدع والطرق وهذه دعوة تتصل بابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وأكثر ما كان يرد فــي كلامه وكلام محمد بلعربي العلوي هو ابن تيمية وابن قيم، كانت حركة جمال الدين الأفغاني سياسيّة محضة، وتبعه فــي ذلك محمد عبده أول الأمر، ولذلك لم تكن دعوة الدكالي وبلعربي العلوي مركزة على محاربة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، ووضعية اللّغة العربيّة

والأدب، لا. كانت إصلاحية دينية، ضد الطرق. لقد عاد محمد عبده إلى الإصلاح الديني بعد مرحلته الأولى مع الأفغاني، ولكنه يختلف كثيراً عن أبي شعيب الدكالي، وهو اختلاف يعود أصلاً إلى طبيعة الحركة الثّقافيّة فــي المشرق والمغرب معاً، لقد قام محمد عبده بالرد على مَنْ يهاجمون الإسلام، فالحملات الغربية على الإسلام من طرف المستشرقين كانت تترجم فورياً فــي الشرق، وكان محمد عبده يرد على هذه الحملة، والرد على فرح أنطون، ومن هنا اكتسى إصلاح محمد عبده نوعية ثقافية.

م. البكري - هي مسألة ترجمة إذن.

ع. كنون - إن الترجمة فــي المغرب، والاتصال بالثّقافة الأجنبية عن طريق الترجمة ظَلّ ومايزال ضعيفاً، فمن يتقنون اللّغات الأجنبية فــي المغرب لا يترجمون إلى العربيّة، لأن عربيتهم عادةً ما تكون ضعيفة، والنادر لا حكم له، فما يأتينا مترجماً يأتينا من الشرق. أسوق حادثة بالمناسبة، قبل الاستقلال، سنة 1950 أو 1951 كان أحمد بلافريج معي فــي طنجة ولا نفترق، ذكر لي أن هناك كتاباً مهماً حول «تاريخ الفكر الأندلسي» لبالينسيا، فشرعنا فــي ترجمته نحن معاً عن الإسبانية، وكتبنا ما يقارب مئة صفحة، وبعد ذلك افترقنا، وهذا ألاحظه باستمرار فــي المغرب. أتى بعدنا حسين مؤنس فترجمه، وصدر، وهو لم يتعرَّف إلى الإسبانية إلّا بعد التحاقه بمعهد الدراسات المصري فــي مدريد. لماذا لا نترجم؟

فالعروي عندنا مثلاً يكتب، وكان من الأفضل أن يترجم أيضاً، إنه يكتب ويخطئ فــي التاريخ، يتبع أخطاء الأوروبيين، بالنسبة للمعلومات، لا الأفكار، ذلك شيء آخر له قيمته.

فالترجمة تميَّزت بها الثّقافة العربيّة فــي المشرق، ونلاحظ أثرها فــي طبيعة محمد عبده، وفــي التيارات الثّقافيّة بعامّة، مصر، سورية، العراق، لبنان، من هو أَقلّ منا معرفة بالفرنسية يذهب إلى فرنسا ويحصل على الدكتوراه، ويؤلِّف الكتب، ونحن لا نفعل، أعرف باحثاً يُسمَى بالدكتور محمد موسى، تخرَّج فــي الأزهر، وسافر ضمن بعثة إلى باريس وهو لا يعرف الفرنسية، قضى ستة أشهر فــي معهد اللّغات فهيأ الدكتوراه، وهو الآن صاحب العديد من المؤلَّفات حول الإسلام والفلسفة، واحد مثل هذا الباحث لا تتوفَّر عليه فــي المغرب.

م. بنيس – شوقي وحافظ توفيا فــي سنة واحدة (1932)، وهما معروفان آنذاك فــي المغرب، ولكن جبران توفــي هو الآخر فــي السنة نفسها، فهل كان معروفاً مثل شوقي وحافظ؟ وهل كان له التقدير نفسه؟ وقد ذكرت سابقاً أنك كنت تقرأ لجبران، وربما كنت قريباً منه.

ع. كنون – لا، لم أكن قريباً منه، شوقي وحافظ كانا معروفين فــي المغرب، ولكن شوقي أكثر من حافظ، كما هو فــي الواقع، فشوقي أهم من حافظ الذي عرفه الناس هنا بقصيدته عن «اللّغة العربيّة»، لذلك أُقيمت فــي المغرب ذكرى شوقي، أما جبران فكان أبعد من حافظ بكثير عن الوسط الثّقافــي المغربي، أنا الآخر حينما قرأته لم أفهمه، المغاربة لم يكونوا يعرفونه، ولكني واظبت على قراءته فــي نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات، وتأثرت به، ولم يكن تأثر المثقّفين المغاربة به ممكناً، لأن أعماله عبارة عن مقالات، ثم إنها ذاتية، وبرغم أني واظبت على قراءته لم أستطع الاستمرار.

م. بنيس – هل لمسيحيته؟ نعرف أنه كان أعمق من هذا.

ع. كنون – لا، على العكس، جرجي زيدان مسيحي، ولكنه كان مقروءاً فــي المغرب، روايته «الهلال. تاريخ التمدُّن الإسلامي».

م. البكري – فــي هذه الفترة تأسَّست الحركة الوطنيّة، ولكن ما هي علاقتها الثّقافيّة بالمرحلة الأولى كانت قد صدرت فيها صحف؟

ع. كنون – حركتنا هي كتلة العمل الوطني التي خُلقت مع تسليم بن عبدالكريم عام 1925 فــي الريف، كانت حركة وطنيّة، عملاً وطنيّاً، وبعد ذلك، وتأثراً بكتلة العمل الوطني السورية، سُميت بــ «كتلة العمل الوطني»، هذه الكتلة كنت أحد أعضائها، ومما ينبغي التنبيه إليه، وهو مُسجَّل فــي مذكراتي، أن الوطنيّة ليست فاسية، ولا مكناسية، ولا تطوانية، ولا رباطية، ولا بالأحرى طنجوية، حركة مغربية، ماذا كان؟ هذه نقطة مهمة، كان بعض الأفراد يشعرون بخطر الاستعمار، وبمهانته التي أصابتنا، كانوا مرضى بهذه السيطرة، يخجلون حتى من الخروج إلى الشارع، هؤلاء الأفراد كان صداهم يُسْمَع، هذا يسمع بذاك، وذاك يسمع بهذا، ثم بدأوا يتكاتبون، وبعد ذلك يجتمعون، فلم يأتِ القرار من شخص بعينه، حين بدأت حركة تركيا مع مصطفــى كمال فــي عام 1918، فــي ذلك الوقت كنا موجودين، نتحرَّك.

م. بنيس – كانت نموذجاً بالنسبة لكم.

ع. كنون – معلوم، مرّة كنت على شاطئ طنجة، وقد كان قِلَّة من الناس، فهتفت: من يغامر فــي هذا البحر هل يمكن أن يصل إلى مصطفــى

كمال؟

م. بنيس فقط حركة أتاتورك! وثورة 1919 فــي مصر؟

ع. كنون – لا، لم يكن لها صدى، فــي هذه الظروف تكوَّنت الحركة الوطنيّة، وحينما قام عبدالكريم كنا فــي عنفوان الحركة نفسياً، أنا شخصياً كنت أُفكِّر كيف أعمل؟، لكن كنت أرى أن طنجة صغيرة، مَنْ سيعينني فــي طنجة؟ بدأنا نتعامل مع النواصر فــي الرباط، والفاسي فــي فاس، وداود وبنونة فــي تطوان، وآنذاك كاتبني علال يقول لي أنا أعلِّق قلبي وساماً على صدرك، فينبغي أن يعرف أن الحركة الوطنيّة لم تخلق فــي مكان دون مكان آخر من المغرب، وبعد المراحل الأولى من إنشاء الحركة الوطنيّة، ظهرت علامات الانشقاق بين محمد بلحسن الوزاني وعلال الفاسي، وحاولنا ألّا يتم ذلك، حاول محمد بلعربي العلوي الإصلاح بينهما، أرسل محمد الخامس وفداً هو الآخر، حاولنا مدة سنة أو سنتين، عسى أن يلتئم الشمل، قال علال للوفد: هذه رقعة بيضاء، وما اتفقتم فيه مع الوزاني أقبل به، لكن بلحسن الوزاني أخذ يضع شروطاً لم يقبلوا بها.

م. البكري – تقصد أن بلحسن الوزاني كان يعتبر نفسه هو المؤهل ليكون زعيم الحركة؟

ع. كنون – نعم، نشأت الحركة القومية على يديه، وبعد ذلك جاءت الحزبية إلى طنجة، فتمزَّقت الحركة.

م. البكري – فــي هذا المناخ العام، ماذا كان عليه صدى التيار العلماني

فـي المغرب، فـي العشرينيات والثلاثينيات؟ مثلاً شميل، فرح أنطون، أديب إسحاق؟ هل كان لهم صدى؟

ع. كنون – لم يوجد صدى للعلمانية فـي المغرب، كانت هناك ظروف أخرى فـي الشرق، لأن هناك مسيحيين، أما المغرب فلا يوجد فيه مسيحيون.

م. بنيس – لو أردنا أن نقارن بين المثقّف التقليدي، والمثقّف العصري فـي المغرب، فماذا يمكن أن تقول؟ خاصّة وأنا شخصياً أقصد من هذا السؤال مفهوم المثقّف التقليدي والعصري فـي الثلاثينيات، وكيف انتقل هذا المفهوم إلى المرحلة الراهنة؟ فمثلاً، بالنسبة لكم أجد طريقة الحياة التي تعيشونها ماتزال تحتفظ بألق ما هو مغربي بجماله الصامت، الآن أنتم عشتم تجربة ثلاثة أجيال فـي المغرب، كيف يمكن أن تقارنوا بين المثقّف التقليدي والمثقّف العصري سواء فـي ثقافته، أم فـي سلوكه، أم فـي علاقته الاجتماعية، أم فـي أُفقه بهذا الانفتاح الذي نتحدَّث به فـي هذه الجلسة؟

ع. كنون – المثقّف المغربي التقليدي أعني به الحديث، لأنه هو الذي يقلّد أما المثقّف المغربي الأصيل فليس تقليدياً، فالاثنان يجب أن يندمجا معاً ليوجد المثقّف المغربي – كلاهما ناقص – الأصيل يحتاج لتجديد وتلقيح، وفـي تلقيح الأجناس تحسين للنوع.. فالتقليدي هو الذي تثقَّف ثقافة أخرى غير ثقافة الأجداد، هذا شيء ضيَّعنا كثيراً، فالمثقَّفون عندنا كثيرون، وحملة الشهادات كثيرون، لكن العطاء قليل.

المثقّف بثقافة أجنبية فـي المغرب غريب عن أبنائه وعن أهله، وحتى إذا توفَّرت لديه اللّغة العربيّة كوسيلة، فيجب أن يلحقها بالأصيل، حتى يُقبِل

عليه الناس، لأن كلّ دولة أو كلّ شعب أو كلّ أمة لها طابعها الخاص، وإذا فرّطت فيه لا تصبح أمة، نحن نعيش عصر تحوُّل كبير جداً فــي الحياة الاجتماعيّة، الفكريّة، العقائديّة، والشيء الذي كان لا يُقال، الآن يُقال بصراحة.

م. بنيس - إذا تحدَّثنا عن العلاقة بين المثقّف التقليدي والعصري، فنحن بطبيعة الحال لا نريد الجانب الثّقافــي فقط، ولكن السلوكي والحياتي بصفة عامّة، إلى أي حَدّ لم يلعب المثقّف التقليدي الدور فــي حوار معرفــي مُتقدِّم مع الثّقافة العصرية والمثقّف العصري، مما يمكن أن يلعب دوراً فــي إزالة هذه الهوة الموجودة بين الثّقافة التقليدية العصرية؟ بالعكس يمكن أن نقول إن بعض المثقّفين، أو بعض مظاهر الثّقافة المغربية فــي السبعينيات، هي نوع من الحوار أيضاً مع الثّقافة التقليدية. نعم، فــي بعض الحالات نوع من الحوار العنيف، وربما يكون مُبرِّراً لمسائل تاريخية خارجة عن إرادة الأفراد، لأن الشباب فــي مرحلة يحسون بضغط تاريخي وحضاري شامل، كما كنتم تحسون فــي بداية العشرينيات، ولا أجد أي فرق وأنا أتحدَّث معكم بين المواقف التي يعيشها مجموعة من الشباب مثلاً، وبين المواقف التي كنتم تعيشونها، ولكن المشكل هو أن هناك إحساساً بالفاجعة أو بالصدمة أو بالتأخر التاريخي - سَمّه كما تشاء - ولكن هذا يترجم معرفياً، ومن ثَمّ أن يدخل فــي حوار مُتقدِّم مع الثّقافة العصرية والمثقّف العصري لا نجده لدى المثقّف التقليدي، هل تعتقدون أن المثقّف التقليدي مُقصِّر فــي هذا الجانب أم لا؟

ع. كنون - لازلنا نختلف حول المثقّف التقليدي والعصري، اختلاف النظر أو اختلاف الاتجاه ظهر منذ أول وهلة، مع التلاميذ الأولين لثانوية مولاي

إدريس بفاس، لأنهم هم الزهور الأولى التي أعطت الثّقافة العصرية، تليها ثانوية مولاي يوسف بالرباط، وأحسوا بهذا التخالف والتنافر بين الجانبين. منذ زمان، وقعت محاولات للتغريب فيما بين الجانبين وتمَّت اجتماعات على هذا الأساس، للحوار، لإزالة الاختلاف، وفــي إطار هذه الاجتماعات كانت حركة التمثيل فــي فاس، وفــي إحداها قال علال الفاسي «كلّ صعب على الشباب يهون»، وهو يقارن فــي هذه القصيدة بين الشباب فــي عصره، وفــي غير عصره، وكانت النتيجة حسنة، بحيث مشى الركب جنباً لجنب فــي الحركة الوطنيّة، لكن الحركة الوطنيّة حركة سياسيّة، ثم إن هذه السياسة كانت ضد عدو مشترك ومعروف، والمقاومة كانت ضد العدو وضد العملاء، ذهبت القافلة متحدة. فــي هذه الأثناء كان جانب الثّقافة العصرية يتسع ويمتد باستمرار، بإنشاء المدارس والثانويات وإرسال البعثات، وبعثاتنا كانت حرّة، لم تكن مثيلة لبعثات الشرقيين، التي كان يصاحبها إمام، وملاحظ تربوي، كانت بعثاتنا حرّة، ولم تكن تذهب على يد الدولة بل وحدها، مثلاً بلحسن الوزاني سافر إلى فرنسا من تلقاء نفسه.

لقد كنا فــي حاجة إلى ثقافة عصرية، وما كتبته عن «القرويين» فــي مجلّة «الرسالة» لحسن الزيات، فــي أوائلها، يؤكِّد هذا الموقف، قلت: ها هي «القرويين» موجودة، ولكننا بحاجة إلى جامعة عصرية حتى لا يذهب أبناؤنا إلى أوروبا ليتشتتوا، ويفسدوا أخلاقهم أو يضيعوا، ومن لا يستطيع الذهاب يبقى ضائعاً.

م. بنيس – سننتقل الآن إلى المحور الثالث وهو الممارسة الثّقافيّة والشعرية، كانت الثّقافة فــي المغرب بصفة عامّة شفويّة، وكانت مظاهر الممارسة

الثّقافيّة تنحصر فـي الدروس، سواء الخاصّة أم العمومية، التي تُلقى فـي المساجد مثل «القرويين»، و«ابن يوسف»، وفروعها، أم البيوتات، وما يمكن أن نسميه بـ «البيوتات العلمية والأدبيّة»، ثم نشأت الأندية الثّقافيّة، هل من الممكن أن نتعرَّف إلى أجواء نشاط البيوتات أولاً؟ ثم كيف نشأت الأندية الثّقافيّة، وبخاصّة فكرة المسامرات مثل مسامرة عبدالسلام السرغيني، أحمد النميشي، عبدالله بلعباس القباج؟ وما هو دور الفرنسيين فـي إنشائها؟ ومتى نشأت؟ وكيف قابلتها النخبة الوطنيّة؟

ع. كنون- لم أفهم معنى «كانت الثّقافة شفويّة».

م. بنيس – أن الأساسي فيها كان يُلقى على شكل الدروس. أما الثّقافة المكتوبة فلم تكن بكثافة الثّقافة الشعبويّة نفسها.

م. البكري – يقصد بنيس أن المغاربة لا يكتبون بكثرة، وإنما يتحدَّثون في الأمور فيما بينهم، هكذا، مشافهةً- مثلاً يمكن أن نطرح موضوعاً كبيراً ونناقشه دون أن نجلس ونكتب ونؤلِّف فيه، وننشر كتاباتنا.

ع. كنون – إذا كان هذا هو المعنى فهي الطريقة الوحيدة والقديمة التي كانت متبعة في الدنيا كلّها، ابتداءً من اليونان، من سقراط ومن أرسطو ومن الرواقيين. الأستاذ يقول وهم يسمعون، وكان هذا سائداً بيننا وبين غيرنا. الكتابة كانت ممكنة عند بعض الناس الذين هم نبغاء، يكتبون في موضوع من الموضوعات، أو إذا طُرِحَ الموضوع من جهة رسمية أو من جهة لها عطف على العلم والعلماء. فكم من الكتب وضعت باقتراح من الملك وأُجيز عليها مؤلِّفوها. وإذا أحببت، كتب الدراسة في المغرب هي غير كتب الدراسة في المشرق في فَنّ واحد، فمسألة الأطروحة ورسائل الدبلوم،

جاءت مع النظام الجديد، ولم تكن من قبل، فكان الطلبة يقرأون على الأساتذة، والأساتذة منهم المؤلِّف ومنهم غير المؤلِّف، فمثلاً المؤلِّف كالسيد المهدي الوزاني كان أكبر المؤلِّفين في كتب فنون التعليم، أحمد بلخياط كان مؤلِّفاً، وكانت كتبه متداولة بين الناس.

م. البكري- كانت تطبع في المغرب؟

ع. كنون- حينما ظهرت المطبعة، طُبعت الكتب في مطابع المغرب والمشرق. كانت المطبعة الحجرية أيام سيدي محمد ومولاي الحسن، والمطبوعات الحسنية يُضْرَب بها المثل في الجودة والإتقان والتصحيح، وما يزال المثقَّفون يفتخرون بأنهم يقتنون كتاباً من الكتب المطبوعة في المطبعة الحسنية - المحمدية، فهي مطبعة «بولاق» عند المصريين، بل مطبعتنا أحسن، لأنها بالخط المغربي، والخط غالباً ما يكون من النوع المسند، ثم المصاحف تُكْتَب بنوعٍ من الخط المبسوط أو المجوهر، وهي من أنواع الخطوط الممتازة التي يمتاز بها المغرب، وضاعت الآن. وهذه طُبعت بالآلاف. وقبل أيام جاءني ابن إدريس بلماحي بكتابٍ لأبيه، وهو من علماء القرويين، كتب تاريخ المطبوعات الفاسية، وأوصى بأن أضع له مُقدِّمة. ذكر في هذا الكتاب المئات من المطبوعات التي طُبِعَتْ بفاس وهي كلّها بالخط. إذن لا يمكن أن تقول لي بأن كلّ هذه كانت شفويّة، هكذا كانت الثّقافة في الدنيا.

م. بنيس - وماذا عن الأندية والبيوتات الأدبيّة؟

ع. كنون- أما الأنشطة في البيوتات فلم تكن موجودة. كانت العائلات العلمية تلقِّن أبناءها وتُكوِّن من كان يقبل منهم بذلك، لأن بعض أبناء

هذه العائلات لم يدرسوا ولم يتثقّفوا- ويُكوِّنهم الجو أيضاً، لأن داراً بالمكتبة ليست كالدار من دونها.

م. البكري - بلغةٍ أخرى: من الشائع وجود نوادٍ أو شبه نوادٍ أدبيّة، ومسامرات في البيوت. مثلاً لقاؤكم أنتم في إطار الحركة الوطنيّة: كنت تجتمعون في بيت ويكون مدار الحديث إما سياسيّاً أو ثقافيّاً، تُطرح قضايا سياسيّة أو ثقافيّة، يُقرأ الشعر وتُوزَّع الحلوى والشاي...

ع. كنون - هناك بيوتات علميّة يتسلسل فيها العلم لكون الابن يفتح عينيه على الكتب، وعلى أبيه يكتب، ويعلِّمه الخط الجيد. هناك أشخاص يرتادون بيوت العلماء. أما أن تقول إنه كانت هناك نوادٍ في البيوت، فهذا لم يوجد.

م. البكري- ما هي أشهر العائلات العلمية التي كانت في فاس آنذاك؟

ع. كنون- أشهر العائلات هي بنسودة، الفاسي، العراقي، بلحاج، هذه كلّها عائلات علماء، فيهم علماء من ثلاثة قرون، قرنين، قرن واحد، وأولادهم يقولون «ابن المعلم يكون نصف معلم»، وكذلك ابن العالم فهو يعرف شرح الأزهري على الأجرومية، شرح منيار على ابن عاشر، شرح المكودي على الألفية، ولهذا يكبر وهو ذو خبرة، ويكون أحسن من الأطفال الآخرين. والجديد هو النوادي، نادي المسامرات حين ظهر لم يكن معروفاً عند الناس. أنا أعتقد - وليت لي معلومات مضبوطة - أن الفرنسيين، ولاسيما المستشرقين منهم، كانوا يتصلون بعلمائنا، مثل (كاتب جريدة «السعادة»)، وعبدالسلام السرغيني، والفقيه بلعربي بصفتهما قاضيين كانا يتصلان بالمراقب. كان لدى الفرنسيين ما يُسمَّى بالسياسة الأهلية،

وضمنها وُجِدَ هذا النادي وغيره، ونشاطه محصور بين المغاربة والفرنسيين في غير سياسة الدولة، النظام والحماية. وهذه هي التي قامت الوطنيّة ضدها. والأشخاص الذين ساهموا من المغاربة في أنشطة النادي لم يكونوا وطنيين ولا خائنين. في المدرسة الإدريسية كانوا أقاموا نادياً تتم فيه محاضرة كلّ ستة أو سبعة أشهر. ثم توقَّف نشاطه قبل الحرب العالمية الثانية، ولما حلَّت الحرب العالمية أوصوا للعلماء والمثقَّفين الكبار، الذين هم في أطر الوظائف، بالقيام بمحاضرات لمناصرة الدولة الفرنسية، وكانت هذه المحاضرات تُذاع في إذاعة الرباط، وكان الراديو مايزال حديث العهد، حتى عبدالحي الكتاني قدَّم هو الآخر محاضرة وهم كثيرون.

م. بنيس – ما هو موقف الحركة الوطنيّة من هذه الأندية؟

ع. كنون– كان الناس ضد هذه المحاضرات.

م. البكري – كيف كنتم أنتم، بصفتكم مُثقَّفين وأدباء وشعراء وساسة وطنيين، تنظمون نشاطكم الثّقافي؟

ع. كنون– حين دخل الإسبان طنجة، رغبنا في تكوين نادٍ ثقافي، وكانت لدينا وسائل خاصّة. ذهبنا واشترينا محلاً، وعلَّقنا لافتة، واستدعينا الناس، وجلسنا في النادي. قلنا الإسبان يظهرون تفتحاً في تطوان، هم فرحون بأن تكون طنجة قد انضمت لهم. ولكنهم عكس ذلك. قضينا ثمانية أو عشرة أيام، فأرسلوا في طلبي. قالوا النادي ليس هذا وقته، وأغلقوه، ولما كتبت مقالة «أسد عليّ وفي الحروب نعامة» عن الإسبان حاكموني.

م. بنيس – اعتقلوك؟

ع. كنون – لا، ذهب الطريس وقال للمقيم أنا أدخل السجن عوضه. لأن العلماء والوطنيين سيقومون ضدك.

الجمعيات الوطنيّة هي الكتلة، ثم تطوَّرت إلى الحزب الوطني والحركة القومية أو حزب الشورى، ثم إلى حزب الشورى والاستقلال، ثم الوحدة المغربية هنا، والإصلاح... هذه شُعَبٌ تجتمع أسبوعياً في مختلف أنحاء البلاد، في كلّ حي توجد شعبة، ويكون منشوراً ثم يطبع على «الستانسيل»، ويُعطى للمكلف فيذهب إلى تلك الشعبة، ثم يقرأ المشروع على تلك الجماعة، ويكون من بينها العامّة، يحرِّضهم على ما يمكن أن يكون موقفاً، بالنسبة للناس أو السلطة، وأحياناً تُلقى دروس في المساجد، منها دروس علال الفاسي، الناصري، دروسي، دروس الفقيه الطنجي بالنسبة لحزب الإصلاح، ودروس عبدالهادي الشرايبي بالنسبة لحزب الشورى– وتُلقى هذه الدروس للتوعية الوطنيّة. هؤلاء كانوا في المساجد، والاجتماعات الخاصّة، وفي المناسبات الثّقافيّة، كذكرى شوقي وذكرى المتنبي، وزيارة شكيب أرسلان لتطوان وطنجة.

م. بنيس– في هذه الفترة تمّت زيارة فرقة وهبي للمسرح.

ع. كنون– وُجِدَ عندنا المسرح في طنجة قبل زيارة يوسف وهبي، أخرجنا مسرحية صلاح الدين الأيوبي وغيرها.

م. بنيس – ولكن ألم تكونوا في هذا متأثرين بالحركة المسرحية في المشرق؟

ع. كنون– كنا نسمع عنها، ولم نذهب إلى هناك. في طنجة كانت مسرحيات

الأجانب، وكنا نشاهدها، في طنجة مسرح سرفانطيس، وكانت فرق أجنبية تعرض مسرحياتها. مثَّلنا صلاح الدين، ومثَّلنا «عطيل» لشكسبير، أتينا بالملابس من جبل طارق بعد أن أرسلنا مَنْ اكتراها من هناك، وذلك لوجود مسرح هناك. وأتينا كذلك بملابس إنجليزية.

م. البكري- هل كنت من الممثلين أم لا؟

ع. كنون- لا، أنا كنت من الملقنين، أُصلح للممثلين اللّغة، أفتتح العروض بالخطبة، وكتبت نشيداً للفرقة.

فهـيا بنا يا شـــــباب العـلا إلى المجـــد نبدو له بســـبب

ونحـــيي مآثر أســلافـــــنا ونقضي لأوطـــاننا ما وجـب

م. البكري- هل كان لكم دور في استقدام شكيب أرسلان؟

ع. كنون- لا، هو الذي أتى، كان في الأندلس، وقد جاء إليها لأنه كان يكتب «الحلل السندسية»، ولما وصل إلى هنا نزل، واتصل بالحاج إدريس الحريثي. الحركة الوطنيّة في طنجة كانت ضعيفة، ليس لديها ما تستقبل به شكيب أرسلان. ولكننا التقينا به.

م. بنيس - ماذا كانت إفادته لكم؟

ع. كنون- نصحنا بالتوقُّف عن الحملة على الطرق والطرقية التي كنا نقوم بها ضد عبدالحي الكتاني، والدرقاوي، في بني زروال، وعلي الوزاني، وغيرهم. قال لنا إن هذا غير مفيد، أنتم تركتم العدو واشتغلتم بعضكم ببعض، خلق بينكم عداء، والطرقيون كلّهم ضدكم، والاستعمار يحرِّضهم

عليكم. والآن عليكم أن توقفوا نهائياً الحملة على الزوايا والطرقيين، وتهتموا بالعدو الحقيقي. هذه كانت من نصائحه المهمة جدّاً، وكلّنا قبلها إلّا بلحسن الوزاني الذي كان سياسيّاً بقي متشبثاً بموقفه ضد الطرقية. أما علال الفاسي، وبلفريج، والناصري، وداوود، فقد قبلوا بموقفه.

م. البكري – ألم يكن قد اتصل به عبدالحي الكتاني؟

ع. كنون– لا. عبدالحي الكتاني كان قد اتصل به مرّة برسالة، فاستغلها، ولما عرفه أرسلان على حقيقته كتب «لماذا تأخر المسلمون وتقدَّم غيرهم». تعرَّض فيه لعبدالحي الكتاني، والمقري. قال إن المقري يقوم بالليل للصلاة، ويصلي الفجر، ولا يقول للأجنبي لا. كان لهذا الكتاب تأثير كبير في الأوساط المغربية.

م. بنيس – بالنسبة لكم، شخصياً، انصبَّ اهتمامكم على العمل الثّقافي، هل هذا يعود لوجودكم في طنجة، أم لاختيار واضح؟

ع. كنون– أنا لم أنقطع للعمل الثّقافي، كنت دائم الحضور في الميدان السياسي، وحتى الآن. لكن عملي السياسي محلي وعام، وتطوَّر إلى أن صار ذا طابع عربي وإسلامي. وحين كتبت رسالة احتجاج إلى «نوكيس» على منع كتابي «النبوغ المغربي» وقد مُنِعَ بقرار عسكري معروف ومذكور في مُقدَّمة الكتاب، أجابني بأن تهمتي هي كوني عنصر اتصال بين وطنيي الشمال والجنوب.

ولو كنت منقطعاً للحياة الثّقافية لأعطيت أكثر ما أعطيت في الجانب الثّقافي، لأن الحركة السياسيّة تأخذ مني وقتاً كبيراً. وظلَّت الناحية

الثّقافية ثانوية بالنسبة لي، نوعاً من الولع، والطموح الفكري هو الذي دفعني للاتصال بها. ولم أقم في الحركة الثّقافيّة بما لم أشعر به ضرورياً. كذلك مرحلة الحركة الوطنيّة. وكان المختار السوسي يقول لي «عملتي فينا النّفس» (أنت حرضتنا على العمل). حينما كتبت مقالة «أسد علي وفي الحروب نعامة» حوكمت. كنت أحاكم باستمرار، صادروا جواز سفري سنة 1930 ولم أسترده إلّا سنة 1947.

م. البكري – طبعاً، مع الاعتراف بأنه كانت لكم مساهمة غنيّة وافرة ورئيسية في صحافة الحركة الوطنيّة منذ 1933.

ع. كنون – منذ «الأطلس». وقبلها كنا نكتب في جرائد مثل «إظهار الحق» وفي «السعادة» لعدم وجود منابر أخرى. كتبت حول الأدب المغربي في «السعادة»، وحول بعض الشعراء.

م. البكري– ولكن كيف كانت الكتابة في صحف استعمارية مثل «السعادة» تُفهم في الوسط الثّقافي آنذاك؟

ع. كنون – صالح ميسَّة أنشأ مجلّة «المغرب»، كتبت فيها ومحمد بلعباس القباج، كما كنا نرسل بكتاباتنا إلى الجزائر وتونس، وشاركت أنا في تونس، وفي الجزائر عند الشيخ ابن باديس، ولم يكن لدينا متنفس، وكان الجميع يفهم هذا الوضع. المهم هو ما تكتب لا أين تكتب.

م. البكري – الخيط الرابط في هذا الهَمّ الثّقافي، وفي كلّ ما كنت تنشرونه، هو التركيز على أعلام مغاربة. هذا إلى جانب القضايا العامّة، وشؤون الأدب المغربي.

ع. كنون- كان الأعلام المغاربة مجهولين، لا خارج المغرب، بل داخله أيضاً، ومن بين هؤلاء الأعلام مَنْ كنت أجهله أنا الآخر.

قرأت «تاريخ الأدب العربي» للزيات، وكتاب «تاريخ الأدب العربي الوسيط»، للإسكندري، وقرأت «تاريخ الأدب العربي» لجرجي زيدان، وكتاب مصطفى صادق الرافعي. ولم أكن أجد فيها سطراً واحداً عن المغرب والمغاربة. هذه واحدة، كان في تونس شخص يُسمَّى زين العابدين السنوسي، صديقي، كتب «أدب وأدباء تونس». الجزائر كتب عنها عصمان الكعاك كتاباً صغيراً في خمسين أو ستين صفحة، مع العلم أنه كان في الجزائر شخصيات مهمة آنذاك. شرعت أبحث عن المغاربة وأنا ابن الخامسة عشرة سنة فبدأت أعثر في الكتب، في الكنانيش، في المحافظ، على معلومات، وما أجده احتفظ به، ووضعت محفظة فيها ما يُسمَّى بالجذاذات حين أجد شيئاً أكتبه وأضعه فيها. تجمَّع لديّ ما يمكن أن أختار منه، قلت الآن أكتب «النبوغ المغربي».

م. بنيس - إذن بدأت في الكتابة.

ع. كنون- بدأت أكتب. وملكة الإنشاء لم تكن قوية لديّ كتبت الإنشاء مسجّعاً. فلا أشعر بنفسي إلّا وقد كتبت صفحة وهي مسجّعة، وهكذا حتى ظهر الكتاب في جزأين، وعمري بين 25 و27 سنة، وطبعته في تطوان، بعد ذلك طبعته الطبعة الثانية، وقد أصبحت لديّ معلومات ووثائق أكثر، أعدت طبعه في 1200 صفحة وفي قالب جديد. ولا وجود الآن لكتاب في العالم العربي يُكتَب حول الأدب العربي دون أن يُذكر فيه المغرب، ويُذكر فيه ثلاثة أو أربعة أو خمسة شعراء.

م. بنيس - ما هي مفعولات هذا الكتاب عند صدوره في المغرب؟ نحن عرفنا موقف الفرنسيين، ولكن ما هو موقف المغاربة؟

ع. كنون- المغاربة تلقوه بلهفة، يأتون عندي من سوس يطلبون مني الكتاب، وكنت أخجل، كان يأتيني الرجل وهو في حاجة إلى خمس نسخ، كنت أبيع بـ 35 فرنكاً، وأخجل أن أتسلَّم ثمنه. الطبعة الأولى ذهبت مجاناً لأنهم منعوها، مدير التعليم عندما يحلّ العام الدراسي يشتري مني مئة نسخة ويوزِّعها، ومن جملة الأمور التي ذكرها «نوكيس» لما اتفقنا سنة 1904، تكلَّفت كلّ دولة بتمدين وتحضير البلاد. حقَّق الإنجليز في مصر كذا وكذا، ونحن يجب أن تظهر أعمالنا هنا. فكتابك كان المفروض ألّا يخرج عند الإسبان، ولكن أن يظهر بالرباط، وهذه أسباب المنع، وعليك الآن أن تأتي بالكتاب إلى الرباط، وتضع له غلافاً آخر، وتقول بأنه طبع في الرباط. فيوزَّع ويُرفع المنع، وجوابي كان هو أنني لما أردت طبع الكتاب أرسلته إلى فاس أولاً، فطلبوا مني قيمة لكلّ ملزمة (8 صفحات) 250 فرنكاً.

م. بنيس - ما قيمة 250 فرنكاً الآن؟

ع. كنون- أكثر من 500 درهم. في الرباط طلبوا مني 350 فرنكاً، في تطوان طلبوا مني ما يعادل 100 فرنك، بالعملة الإسبانية، بالإضافة إلى المعاملة الخاصّة، لأن أصحاب المطبعة يعرفونني، فهي مطبعة وطنيّة، يملكها الحاج عبدالسلام بنونة ومحمد داوود، وهكذا طبعت.

م. بنيس- حركة الطبع هي جزء هام من الممارسة الثّقافيّة الجديدة في المغرب. الحديث، هل يمكن أن نعرف عنها بعض العلامات الدالة في تلك المرحلة

وقد تعرَّفتم إلى بعض هذه العلامات من خلال مصاعب وأثمان طبع كتابكم «النبوغ المغربي»؟ كيف كان يتعامل المثقَّفون ورجال المال مع مشروع المطبعة؟ لقد ظلَّت أيضاً حركة الطبع محصورة في المغرب، ما هو سبب ذلك في رأيك؟

ع. كنون- حركة الطباعة كما تعلمون ركن أساسي في قضيّة الثّقافة ونشرها. الطباعة عندنا في المغرب تأخرت كثيراً. أجدادنا كانوا أحسن حظاً منا وأكثر فهماً منا لأهمية الطباعة. فلما ظهرت الطباعة الحجرية قاموا بها، فنشرت ثروة عظيمة من الكتب المغربية، تاريخيّة، وأدبيّة، وفكريّة، ولغويّة، أدخل المطبعة شخص يدعى أحمد اليمني بفاس، ثم اشتراها مولاي حفيظ وطبع بها بعض الكتب. ومعروف أن مولاي حفيظ طبع كتباً كبيرة وباعها للمشرق مجلدات. كما كان عنده وكيل في مصر وهو بنشقرون. بعد الحماية كانت مطابع منها مطبعة السعادة، وفي تطوان كانت مطبعة الدولة التي كانت تطبع جريدة «الإصلاح»، وهي رديفة «السعادة» عند الفرنسيين. ومرّة اتفقنا أنا والحاج عبدالسلام بنونة والسيد داوود على النشر في جريدة «الإصلاح». جاءنا أن صاحبها الدحداح، وهو لبناني، وضعه الإسبان مسؤولاً عنها، كما عيَّن الفرنسيون وديع حداد في «السعادة». قال لنا الدحداح: أنتم لا تكتبون، والجريدة أمامكم. قلنا إن الجريدة استعمارية. قال: الجريدة مفتوحة أمامكم فاكتبوا ما تريدون، وقال انتقدوا الحماية واشتموا حتى الحماة، ونحن ننشرها، فاتفقنا نحن الثلاثة على الكتابة فيها، وفعلاً كتبنا في «الإصلاح» بعد هذا الاتفاق.

كنا بحاجة إلى أن ننشر ولا نجد أين. ظهرت مطبعة فاس التجارية وكان

المسؤول عنها هو عبدالعزيز بوطالب الذي قتله الفرنسيون، وهناك أيضاً مطبعة بوعياد، بالإضافة إلى مطبعة الرايس الموجودة منذ ما قبل الحماية، وهي المطابع الحجرية، ثم اتفقت الحركة الوطنيّة في تطوان. الحاج عبدالسلام بنونة، والفقيه داوود مع غيرهما، وأتوا بمطبعة، لكن، على العموم، الطباعة كانت ماتزال متأخرة عندنا في المغرب. وكما بدأت بقيت، والسبب في ذلك هو ضعف الثّقافة على العموم، وعمال المطبعة هم من أَقلّ العمال المؤهلين لهذه الصناعة فمجهود المؤلِّف أو الناشر لا يساعد على انتشار الطباعة، ويظهر أننا لم نتهيأ بعد لنكون منتجين للفكر، أو مصدرين له.

م. بنيس- ولكن أعتقد، في هذه النقطة، وبحسب احتكاكي منذ 14 سنة على الأَقلّ بالمطابع، في كلّ من فاس والرباط والدار البيضاء، أن رؤوس الأموال المغربية لم تكن تعطي أية أهمية للطباعة، وفي السنوات الأخيرة فقط- نظراً لطبع الكتاب المغربي المدرسي واتساع الإدارات، وكذلك المجلّات والكتب، هي التي دفعت نسبياً لوجود بعض المطابع،- ولكن حتى الساعة يصعب القول إن هناك نوعاً من الاختيار بالنسبة للكاتب المغربي بين المطابع. فهو لا يجد هذه المطابع حتى يختار.

ع. كنون- هذه المطابع التي ظهرت عندنا إما رسمية، وإما لشركات تجارية، والكتاب المضمون الرواج هو الكتاب المدرسي. فنحن إن لم تكن لدينا صناعة طباعية مهمة جداً، فلن نخرج من ورطتنا هذه. وعلى المغرب أن يكون بلداً مُتقدِّماً. جاء الجزائريون والتونسيون وحلّوا المشكلة بإنشاء شركات حكومية للنشر، تنشر وتبيع بثمن منخفض، لأن الطبع يُقام بثمن باهظ، وهذا ما يسمح للكُتَّاب والشعراء كي يصدروا

كتبهم، أما نحن، إن بقينا هكذا فإننا سنظلّ في المؤخرة، يُنشر كتابنا في الخارج ويلقى رواجاً. الكتب التي تطبع في مطبعة فضالة في المحمدية، وهي تابعة لوزارة الأوقاف، ثمنها مرتفع ويصل إلى 70 درهماً.

م. البكري- هؤلاء لا تعنيهم الثّقافة، همهم هو التجارة والمال.

ع. كنون- ينقصنا في المغرب شيئان: الطباعة التي لا نتوفَّر عليها، وجريدة مغربية تتوجَّه للشعب المغربي ككلّ.

م. بنيس- كيف تفسِّر عدم وجود جريدة مغربية تتوجَّه للجميع؟

ع. كنون- نحن عندنا جرائد منتمية، قلتها لعلال نفسه، لما ذهب وفدنا إلى سويسرا للعمل، جاء البعض يقول نحن كنا رسميين، وجاء البعض الآخر يقول نحن كنا رسميين. إذن يجب أن تكون هناك جريدة لتقول لنا من هم الرسميون؟! لأن «العلم» قالت إن أصحابنا هم الرسميون، وجريدة «المحرر» قالت إن أصحابنا هم الذين قُبلوا، وهم الرسميون. نحن بحاجة لجريدة تكون لنا جميعاً، ليست مع هذا أو ذاك. نحتاج لجريدة تكتسح الميدان.

م. البكري- هذه السنة أُثير مشكل الصحافة الأجنبية في المغرب، ما هو موقفكم؟

ع. كنون- هذا موقف موسمي، مترتب على قرَّائنا بلغة أجنبية، ولا يمس الصحافة العربيّة.

م. بنيس- ولكن ربما تدخل صحيفة «الشرق الأوسط» ضمنها، وهناك من

يقول بأنها ستصبح في المغرب إلى جانب صحف أخرى فرنسية.

ع. كنون– «الشرق الأوسط» صحيفة واحدة، الصحافة الأجنبية تغزونا لأن القرَّاء موجودون.

م. بنيس– ولكن لا يمكن – في اعتقادي– أن تكون، مهما كان الوضع، أن تعامل الثّقافة بالمفهوم الواسع، حتى في إطار الصحافة، معاملة السلع الاستهلاكية الأخرى. فمهما كان الوضع، فهذا مشجع على تطوير الثّقافة في المغرب، إذا أردنا أن ننافس الخارج، فيجب علينا أن ننافسه في الإنتاج، وفي الدفاع عن حرّيّة الصحافة، وليس بمنع ما هو غير مغربي من الدخول إلى المغرب.

ع. كنون– هذا ما أقوله، ثم لو كان لدينا الإنتاج الذي يكفي. ما دام هذا غير موجود، فإن القرَّاء باللّغة الأجنبية يوجدون في المغرب بدرجة ليست موجودة لدى أي دولة أوروبية. مثلاً الإنجليزي يقرأ الألمانية في حدود، ونحن لدينا العكس، انظر كم تستهلك بلادنا من كتب أجنبية للمؤلِّف الأجنبي، والناشر الأجنبي، والمكتبة الأجنبية؟

م. بنيس– هناك جانب آخر من الممارسة الثّقافيّة في المغرب، وهو الكتابة. هناك قانون استخلصته من قراءاتي لبعض المظاهر الثّقافيّة في المغرب، وهو الانقطاع عن ممارسة الكتابة. ويتجلّي من خلال ثلاث حالات. أما الحالة الأولى فهي توقُّف بعض الكُتَّاب عن الاستمرار، وهو توقُّف نهائي. ثانياً: تغيير اتجاه العمل الثّقافي، ومن ثَمّ الكتابة من مجال إلى مجال آخر، وأخيراً الاستمرار في الإنتاج دون الاستمرار في فاعلية الكتابة. فيمكن للكاتب أن يظلّ يكتب، ولكن ما كتبه لا قيمة له. فالثّقافة لا تطوِّر علاقتها بالتطوُّر المعرفي

على الصعيد الإنساني، لا شك أنكم فكّرتم أكثر من مرّة في هذه الحالات. كيف تنظرون إلى هذه المسألة؟

ع. كنون- هذه القضيّة ذات اتصال بما تكلَّمنا عنه من حيث التكوين والتثقيف وما إلى ذلك. فالكاتب الذي يكتب مرّة وينقطع، فإنه ترامى على الكتابة ولم يكن مؤهلاً لها. ولذلك يرجع إلى أصله. من يكتب وينوِّع، إذا كان هناك انقطاع عما كتبه أولاً، تحتاج حالته لتفسير خاص. فإذا كان يكتب على أساس التنويع، فهذه ظاهرة معروفة عندنا في العالم العربي من قديم، فالمؤلِّفون والكُتَّاب كانوا يكتبون في عِدّة موضوعات وهم موجودون، وهي تعود لمفهوم العالم الموسوعي الذي يكتب في عِدّة مجالات، ويسدّ فراغاً في عدد من الموضوعات.

م. البكري- كنتم مِنْ أبرز مَنْ دعوا إلى التجديد في الشعر والأدب واللّغة والثّقافة والمجتمع. هل يمكن أن تعرِّف الحدود التي كنتم تضعونها للتجديد، بمعنى هل هو تجديد يتبع نموذجاً مُعيَّناً، مثلاً الشرق، أم تجديد لا نهائي؟

ع. كنون- قلت لكم، منذ بداية عملي شعرت بأن ما كنت بدأت به في الكتابة هو مجرد تكرار واستنساخ لغيري. وشرعت أفكر كيف يمكن أن أُضيف شيئاً. إذ من المفروض أن أُعطي أنا الآخر. المبدأ كان عندي هو عدم التقليد، يعني أن لا أُكرِّر غيري. عدم التكرار هو ألّا أُقلِّد. «إذا كفيتم فاكتفوا»، إذا وجدت من يقوم بشيء ما لا أقوم به أنا. فالتجديد الذي أحسست به في الشعر هو تجديد محدود، لكنه ليس صورة مما عند غيري. ولم أكن متمادياً في الشعر كثيراً، لأن من يشتغل بالكتابة والبحث لا يبقى له الوقت الكافي للشعر. زيادة على أن والدي لم يكن ينهاني عن

الشعر، ولكن يشجعني عليه، بقي لي النشر. أكتب مقالات وأحرص على أن يكون البحث موضوعياً، طريفاً وواضحاً. والطرافة والوضوح هما نتيجة فهم الموضوع. فلن تجد لدي فكرة غامضة أو غير مفهومة. المفهوم يعجب الناس وكذلك الطريف، وأظن أن لهما صلة بالتجديد.

م. بنيس- ولكن هل لهذا التجديد حدود كنتم تتصورونها، أم أن ليس للتجديد حدود؟

ع. كنون- التجديد يتبع حياة الإنسان. مثلاً في الدين يوجد تجديد، ولم يتوقَّف مرّة.

م. بنيس- نستغرب ونحن نعرف أنك لم تناهض الشعر المعاصر في المغرب، على عكس ما وقع فيه العقاد مثلاً، بل إنك لم تكن ضد أي تجديد في الثّقافة المغربية في جميع مراحلها التحديثية. كيف تفسِّر لنا هذا التآلف بين التقليد والتجديد في قناعتك؟

ع. كنون- هذا مفسَّر طبيعياً، أنا من طلاب التجديد، من طلاب التغيير، من طلاب الإبداع، وأنا نفسي في الشعر قبلت التفعيلة، وعندي نماذج فيها، اختلف مع الآخرين في كوني لا أفهم أغراضهم في بعض الأحيان، ولكن هذا لا يجعلني أن أكون ضدهم. وقد قلت لك مرّة بأن عليك القيام بكتابة مُقدِّمة لدواوينك لأنك لا تكتبها لنفسك وحدك. بل لجميع القرَّاء، ولهم الحق في أن يفهموا. وقد تعرَّفت على عدد من الأوزان الشعرية لدى أصحابنا في الأندلس الذين قاموا بما لم يقم به الآن الشعراء المحدثون. آلاف الأوزان كانت عندهم. لكن ما بقي منها هو الصالح للبقاء. هناك من كسروا وحدة البيت، ووضعوا لكلّ بيت قافية. هذا لا يمكن إنكاره، لأنه

واقع، ومن المفروض أن يكون في هذا العصر.

م. البكري- كيف تنظر إلى التجديد في الشعر المغربي بعد الاستقلال؟ هل يسير في هذا الأفق الإنساني الذي كنت تتحدَّث عنه في الأربعينيات والخمسينيات. ترى أن الشعر الذي يُعلي من الهمة الوطنيّة، ليس هو الشعر، وإنما هو ضرورة تاريخية؟

ع. كنون- كنت أقول لمركادر، صاحبة مجلّة «المعتمد»، نحن مشغولون بالمعركة الوطنيّة، والشعر الإنساني سيأتي وقته بعد الاستقلال، لم يكن عندنا في المغرب العربي شوقي أو الرصافي أو نازك أو السياب. التقينا بالشعر دفعة واحدة، ولا يمكننا بهذا أن نجيد. ولهذا، ليس عندنا في المغرب شاعر المغرب. مثلاً الجزائر يمكن أن نقول بالنسبة لما كان قنطرة للتجديد، لديها محمد بلعيد، قصيدته ذات ألفاظ متخيرة، وتحس فيها بنخوة شاعر يتكلَّم. وهذا لا يوجد عندنا. والشابي، برغم أنه لم يقد المعركة في تونس، فهو الآن شاعرها، وحقيقة الشابي أنه أعطيته قيمة أكثر ما يستحق. هل يمكن أن نقول إن الحلوي شاعر المغرب؟ هذا غير ممكن. شاعر دون رسالة، شعره موزون، لغته نقيّة إلى حَدٍّ ما، ولكن في حدود ضيقة. علال الفاسي توزَّع بين عديد من المجالات، كتب شعراً اجتماعياً وإنسانياً، ولكن قالبه غير متجانس.

م. بنيس- ما هو السبب في انعدام وجود شاعر المغرب في نظرك؟

ع. كنون- لم تنتشر اللّغة العربيّة عندنا انتشاراً واسعاً في العصر الحديث. هي موجودة، ولسنا فقراء فيها. نحن نحتاج للمحتوى الذي سنؤديه للّغة العربيّة. العربيّة موجودة، ولكن الاستمرار والممارسة غير

موجودين. ابتغى حسن الطريبق أن يكون شاعراً، ولكنه لم يُحقّق شيئاً، أحمد عبدالسلام البقالي، هو الآخر أراد دون أن يصل، الشاعر الذي عندنا هو شاعر مراكش، شاعر الحمراء، لكن كلامه مُفكَّك ولا موضوعات له. كان يريد أن يكون شاعر الخمريات وهذا أيضاً لم يتحقَّق. وما قلته يتعلَّق بشعر النهضة والشعر الرومانطيقي، أما الشعر الحديث، فلست قادراً أن أصدر بشأنه حكماً، هل أصحابه موجودون أم غير موجودين؟

م. البكري- هناك تقليدي تاريخي في حكم المشارقة على المغاربة يتلخَّص في «هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا» إلى أي حَدّ هي صحيحة؟ وكيف انعكست في العصر الحديث؟

ع. كنون- هذا كلام الصاحب بن عياد. آنذاك كانت الأندلس في طور التكوين (القرن الثالث)، وكانت تتمنّى أن تبدأ في العطاء. من بعد ذلك أعطت. أما المغرب فقد كان دائماً مبخوس الحظ من هذه الناحية. شعراؤه قليلون، وأعمالهم غير موجودة. فالمغرب كقُطر ساهم في الحركة الفكريّة والأدبيّة، العربيّة أو الإسلامية، بنصيب لا بأس به، إذا وضعناه في موازاة مع أقطار عربيّة أخرى، باستثناء العصور الثلاثة الأولى التي كانت عصور المسلمين بأكملهم مشرقاً ومغرباً. نحن كذلك ساهمنا فيها. حين كان الفقيه أو العالم أو الأديب يمدّ عينه من المدينة المنورة إلى طنجة، أو بغداد، أو الأندلس، يرى أن هذه البلاد كلّها مملكته. ولكن هذا لم يستمر. فنحن في المغرب، أو في تونس أو الجزائر، كنا في المؤخرة ومانزال، ولم نرافق الجماعة بعد. ولكن في العصر الذي كنا فيه أمة واحدة، لم يكن لمصر شاعرها.. فأبو تمام أو البحتري أو مالك بن أنس، لا يمكن أن نقول عنهم إنهم عراقيون أو حجازيون أو غير ذلك. كلّ هذا تغيَّر.

م. بنيس- تجدَّد النقاش حول هذه النقطة في بداية العشرينيات في المغرب، وهو مُتجدِّد باستمرار.

ع. كنون- نعم تجدَّد هذا كثيراً في العصر الحديث، وقبل شهور- فقط- قام عبد المعطي حجازي بنقد غير موضوعي للشاعر المغربي البوسي، فاضطررت للردّ عليه، وكنت أنتظر أن يدافع كُتَّاب مغاربة آخرون عن البوسي، ولكني وجدتني وحيداً، أنا الذي أردّ، أما الآخرون فيكتفون برؤية ما يحدث دون أن يتدخَّلوا، ولست أدري كيف أفسِّر هذا. هذه مصيبة تحاول أن تجر السفينة إلى الماء، فإذا بآخرين يثقلونها بالأحجار.

م. البكري- أنت الكاتب المغربي الوحيد الذي استقبلك معهد الدراسات العليا التابع للجامعة العربيّة في مصر. هل يمكن أن تُقدِّم لنا بعض التفاصيل؟

ع. كنون- معهد الدراسات اتصل بي مديره الأول شفيق غربال. طلب مني أن ألقي محاضرات، فكان جوابي أني لا أشتغل بالأدب الحديث. بعد ذلك كتب لي بهذا الشأن الدكتور طه حسين الذي تولَّى إدارة المعهد، وطلب مني أن تكون محاضراتي عن أدب المغرب. والمشارقة بعامة يقصدون به المغرب العربي، وألحَّ عليَّ فأجبته بأني لا يمكن أن أتطوَّع لإلقاء محاضرات عن الأدب العربي الحديث في المغرب العربي، فلم يأتني جواب في الأمر. تولَّى عبدالرحمن البزاز العراقي إدارة المعهد، فلما اتصل بي في مصر اقترح عليّ، بإلحاح مرّة أخرى، فأشرت عليه بالاتصال بمحمد الفاسي. وفعلاً ذهب ولكنه قدَّم محاضرتين- فقط- لهما طابع معلومات عامّة عن المغرب جغرافياً واقتصادياً، اتصلوا بي مرّة أخرى فاقترحت محمد بن تاويت، ولكنه هو الآخر لم يفعل، بعد ذلك اقتنعت بضرورة

الاستجابة. وهنا اعتمدت على ما لديّ من وثائق صحافية لأن الكتب نادرة، بل كتب الأدب المغربي غير موجودة. ولم أكاتب أحداً، لأني أعرف بأن من تكاتبه لا يُجيب. وفصَّلت محاضراتي بحسب الموضوعات التي أتناول من خلالها تاريخ المغرب الحديث، وتطوُّر الأدب من شعر ومقالة وقصّة ومسرح. هكذا ابتعدت عن فكرة تقديم الشخصيات الثّقافيّة، كما ابتعدت عن طلب المساعدة. فهذا الطلب لا يُستجاب.

م. البكري- كنت تعرف أنك إذا كتبت لأحد فلن يجيبك؟

ع. كنون- نعم كان القباج يحكي لي عن مراسلة الشعراء والمشقة التي عاناها وهو يجمع مواد كتابه عن «الأدب العربي في المغرب الأقصى» (1929). وحين ألقيت هذه المحاضرات، كان لها صدى هناك، ونُشرت في مطبوعات المعهد، ثم نُشرت ثانية مع مُقدِّمة لإسحاق حسيني. ونُشرت هنا في المغرب بعد ذلك.

م. بنيس - لا شك أن المؤرِّخ يغفل كثيراً من المعطيات وهو يؤرِّخ لحقبة تاريخيّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة أو ثقافيّة. وهناك الآن في المغرب حركة أكاديمية لمحاولة التأريخ للحركة الثّقافيّة في المرحلة الاستعمارية. ما هي كلمتكم لهؤلاء المؤرِّخين؟

ع. كنون- قلت لهم أكثر من كلمة.

م. بنيس - ما هو رأيكم في طريقة هذا التأريخ؟ ما هي القضايا التي لا يعطونها اهتماماً؟ وكيف يمكن أن يتلافوا الثغرات التي لا يمكن أن توجد مثلاً في وثائق مكتوبة أو وثائق ضائعة. لأن هناك مشكلاً في تأريخ الأدب

المغربي الحديث والقديم، إما لانعدام المصادر، أو ندرة الرواية، وهذا ما يُثير نوعاً من الصعوبات في طبيعة العمل.

ع. كنون- هذا من جملة ما قلته لجماعة معهد الدراسات العليا. قلت لهم إنه يمكن لباحث من لبنان أن يكتب عن الأدب اللبناني، ومن سورية كذلك ومن العراق.. لماذا؟ لأن دواوين شعراء هذه البلاد مطبوعة. المجموعات الكتابية الإنشائية أيضاً موجودة. هذه المواد الحكم عليها موجود. أنا ستكلِّفونني بمهمات عديدة في هذا، أولاً: ليست لدينا هذه المجموعات، لا شعرية ولا نثرية، ثانياً: لم تُدرس بعد ولم يحكم عليها النقد أو الزمن. ولابد هنا أن أكون أول من سيُصدر عليها أحكاماً، وهذه الأحكام من قبيل المغامرة، فمن المهمات التي تخص هؤلاء الباحثين الذين يدرسون الأدب المغربي، أن يجدوا المجموعات الأدبيّة في المغرب. لِمَ لا يهتمون بوضع الذين يدرسون الأدب المغربي، أن يجدوا المجموعات الأدبيّة في المغرب. لِمَ لا يهتمون بوضع مجموعات أدبيّة عامّة، شعراً ونثراً، أو متخصّصة في ناحية من النواحي أو في الكتابات العامّة؟ تريد أن تبحث فتجد يدك في التراب. لماذا لا تصدر مجموعة فيها مثلاً ثلاثة شعراء من المغرب؟ أربعون أو خمسون صفحة عن كلّ واحد مطبوعة في كتاب؟ كذلك، نحن لا ننصف بعضنا بعضاً أبداً. روح الأنانية مُتجذِّرة فينا. كتبت عن المغاربة ونوَّهت بهم أكثر مما يلزم. لكني أول من ينكرونني، إنهم لا يعرفونني. هؤلاء الذين يكتبون أو يبحثون يظنون أنني سأزاحمهم. لقد وصلت إلى الحَدّ الذي أخجل فيه من الثناء عليّ. نحن لا ننصف بعضنا بعضاً. نعتقد أننا بإنصافنا للآخر والاعتراف بما قدَّمه وبذله وكأنه إنقاص لنا، إذن، الحلّ هو السكوت عنه، أو إنكار وجوده، أو الاستمرار في تحطيمه، هذا غريب!

م. البكري- هل تكتب مذكرات؟ وإذا كان الجواب نعم، فمتى بدأت في الاشتغال بها، وما هو الجانب الذي ركَّزت عليه؟

ع. كنون- نعم، وهذه مذكرات لاتزال تحت القلم. عنوانها «مذكرات غير شخصية». أُسجل فيها بعض الأشياء التي يغفلها الناس، أو ربما يحرقونها. وفيها ما يتعلَّق بالطفولة، ولا أذكرها لأنها تتعلَّق بي، بل أذكرها لأنها تصوِّر كيف كان المجتمع المغربي. وفيها ما يتعلَّق بالدراسة، والمقصود هو كيف كانت الدراسة. أتحدَّث فيها أيضاً عن الحياة والمسؤولية والعمل والعقبات التي يلاقيها الإنسان وصدامه مع محيطه.. هناك النشاط الثّقافي والسياسي والاجتماعي، وعمل بعض الأفراد والاتصالات التي كانت لي بهم. هي مذكرات قريبة جداً مني، ولكنها أيضاً مرتبطة بما عاشه المغرب الحديث، من خلال عاداته، وطموحاته، وصراعاته، ولذلك فهي غير شخصية. إنها تَذَكُّر لزمنٍ ولأهله.

«الكرمل» - يناير 1984

قصّة الأدب في المغرب

ساير موكب الأدب في المغرب مواكبه في الأقطار العربيّة الأخرى من لدن الفتح الإسلامي إلى الآن، ولئن أغفل كثير من مؤرِّخي الأدب العربي تسجيل هذه الحقيقة فإنهم لم يستطيعوا أن يغمضوا أعينهم عن المشاركة الفعّالة التي قام بها أفراد عديدون من المغرب في بناء صرح المدنية العربيّة، بما لها من مُقوِّمات فكريّة، وتجارب علمية، وحسبنا أن نذكر أن الجغرافي العربي الوحيد، الذي ترك لنا أثراً علمياً في الجغرافية لم يكتب مثله بعد «بطليموس» اليوناني، كان عالماً من المغرب، وهو الإدريسي الشهير، فإذا أضفنا إليه الرحالة العالمي «ابن بطّوطة» كان أهم ما يعتز به التراث العربي في هذا الصدد، منشأه من المغرب، وفي علوم الطب والكيمياء، والطبيعة، والرياضيات، حسبنا أن نذكر اسم أبي الحسن المراكشي الذي نجد اسمه - مع الأسف- معروفاً عند الغربيين أكثر من أبناء جلدته العرب.

وكذلك ابن البناء العددي، الذي له في الحساب والجبر والفلك، مؤلَّفات لبثت عهوداً طويلة، مما يعتمد عليه في دراسة هذه العلوم بأوروبا قبل المغرب، والبلاد العربيّة كافة. ومثلهما ابن الياسمين، والجادري، ويوسف ابن شمعون، واللجائي، الجزنائي، والبعقيلي، وأبوالقاسم الوزير، والغول

الفشتالي، وكثيرون غيرهم من الأطباء والنباتيين والمهندسين والفلكيين..

أما في علوم الفقه والحديث وغيرهما، من أصول الثّقافة الإسلامية، فإن أحداً من أصحاب المؤلَّفات في طبقات علماء الإسلام، لم يمكنه أن ينسى جهود أمثال دراس بن إسماعيل، وأبي عمران الفاسي، وأبي محمد الأصيلي، والقاضي عياض، وابن الحاج العبدري، وابن رشيد الفهري، وأبي الحسن الصغير، وابن الشاط، وزروق، وابن غازي، وغيرهم كثير.

وفي علوم العربيّة نبغ أبو موسى الجزولي صاحب الكراسة ذات الشهرة الطائرة في علوم النحو، وابن معطي صاحب أول ألفية في النحو نسج ابن مالك ألفيته على منوالها، وابن آجروم صاحب المقدمة التي ما لبثت حتى الآن من كتب الدراسة الأولية لعلم النحو في العالمين العربي والإسلامي، والذي أعطى اسمه للقواعد النحوية ذاتها، فكثيراً ما قِيل الأجرومية وعُني بها النحو.

وفي متن اللّغة العربيّة يكفي ذكر اسم مالك بن المرحَّل، وابن الطيب اللّغوي الذي صار اسمه مقروناً بالفيروزبآدي صاحب القاموس، والزبيدي شارحه، ونظائرهما من أساطين المؤلِّفين في متن اللّغة.

أما في التاريخ فقد أعطى المغرب أسماء عديدة برزت من بين المؤلِّفين في التاريخ العام فضلاً عن تاريخ المغرب، وناهيك بالمراكشي (صاحب المعجب)، وابن عذاري (صاحب البيان المُغرب) وابن أبي زرع (صاحب القرطاس)، واكنسوس، والزّيَّاني وغيرهم.

وذكرنا لهذه الأسماء اللامعة في غير الثّقافة الأدبيّة خاصّة، إنما هو إشارة

إلى تلك المساهمة التي ألمعنا إليها من أبناء المغرب في الحياة الفكريّة العربيّة عامّة، على أن الأدب بمدلوله العام، يتناول جميع فروع المعرفة وسائر ضروب التفكير، فإذا كان المغرب يتوفّر على رجال من هذا الطراز في العلم العام، فما بالك بمن لم يبلغ مرتبتهم ولم تجاوز شهرتهم حدود بلادهم.

أما في الكتابة والشعر والفنون الأدبيّة بوجهٍ خاص، فقد نبغ من أبناء المغرب في ذلك، الشاعر ابن حَبُوس، والكاتب أبو جعفر بن عطية، وأبو العباس الجراوي صاحب كتاب «الحماسة المغربية» الذي يتحدَّث عنه ابن خلكان، في «وفيات الأعيان» ويقول: إنه عند المغاربة يقوم مقام «حماسة أبي تمام».

ونبغ من الشعراء الأمراء، أبوالربيع سليمان المُوَحِّدي، له ديوان شعر مخطوط يوجد في مكتبة «الأسكوريال» وفي غيرها من المكتبات المغربية، كذلك نبغ من الشعراء، ابن عبدون المكناسي، وميمون الخطّابي، ومالك بن المرحّل، الذي يُعدّ أكبر شعراء المغرب، وله مؤلَّفات أدبيّة كثيرة، وأبو العباس العَزَفي، وأبو فارس الطزوزي، والجزنائي، وابن جابر المكناسي وعبدالعزيز الفشتالي، الكاتب الشاعر المؤرِّخ، وابن زاكور ومنتخب ديوانه مطبوع، واليوسي وديوانه مطبوع كذلك، وابن الطيب العلمي صاحب كتاب «الأنيس المطرب» على نسق «قلائد العقيان»، وابن الونان صاحب قصيدة «الشمقمقية» في الأدب وهي مطبوعة وغيرهم.

هذا نبأ الحركة الأدبيّة في المغرب عبر التاريخ، وإذا أريد استيفاء الخبر عن ذلك، فليرجع إلى كتاب (النبوغ المغربي في الأدب العربي) الذي أرَّخ

للحياة الفكرية والحضارة المغربية، من لدن الفتح العربي، إلى بداية القرن الحالي.

وأما في الفترة الراهنة، وهي ما نعبّر عنه بالعصر الحديث، فإن الأدب أخذ يتطوَّر شكلاً وموضوعاً، أسوة بما حدث في الشرق العربي، فلم يعد مقتصراً على القصيدة الشعرية، والرسالة النثرية، أو المقامة والخطبة، وما إلى ذلك، بل استحدثت فيه أشكال عديدة، وأبواب جديدة، من أهمها في الشعر، المسرحية، وفي النثر، المقالة، والأقصوصة، والقصّة، كما أن الموضوعات التي كان يتناولها الشاعر والناثر لم تبق هي موضوعات المدح، والغزل، وما إلى ذلك في الشعر، والوصف والمطارحات الأدبيّة ونحوها في النثر، وإنما اتسع المجال أمام الشاعر والكاتب، وأصبح الأديب صاحب رسالة سامية، ومكانة مرموقة في المجتمع بصفته أحد قادة الفكر، ورائداً من رواد النهضة في العالم العربي. وهكذا لم يعد الأدب فَنّاً مسخَّراً لخدمة الرؤساء والملوك، ولا تزجية للوقت عند من لم ينزل بأدبه لمستوى الشعراء المادحين، والكُتَّاب المكتسبين، بل صار دعوة ومذهباً، وتعبيراً صادقاً عن الحياة والواقع الاجتماعي.

ومن الحقّ القول بأن تطوُّر مفهوم الأدب عندنا إنما حصل بتأثر النهضة الأدبيّة التي قامت في الشرق العربي، في بداية هذا القرن، إذ إنه قبل أن يتصل أبناء المغرب، بالثّقافة الغربية، ويطّلعوا عن طريق المدرسة الفرنسية على المذاهب الأدبيّة الحديثة، كانت الطليعة الأولى من أدباء المغرب، تتصل عن طريق الصحافة العربيّة، والمطبوعات الصادرة في البلاد العربيّة، وخاصّة منها مصر، بالإنتاج الأدبي الجديد، لأعلام النهضة في العالم العربي، وتتأثر به وتحاول النسج على منواله، وكان من هؤلاء

من له آثار طيبة في هذا الميدان، كالشاعر المرحوم محمد السليماني، والأديب الكبير أحمد بن الموّاز، والكاتب المؤرِّخ محمد بوجندار، وسواهم من طلائع النهضة الأدبيّة المتوفين، ومن الأحياء أحمد النميش، ومحمد الجزولي، ومحمد كنون، ومحمد بن اليمني الناصري، وهو أخصبهم قريحة وأكثرهم إنتاجاً.

وكما كان الحال في الشرق العربي، أول النهضة الحديثة، فإن الشعر السياسي الوطني هو أول ما ظهر من ألوان التجديد في موضوعات الأدب، وذلك أن طائفة من شباب الجيل الناشئ، في عهد الحماية، لما رأوا البلاد ترزح تحت نير الحكم الأجنبي، أخذتهم العزة الوطنيّة، والحمية العربيّة فصاروا يتغنون بشعر كلّه ثورة على الواقع الأليم، ويدعون إلى مقاومة التدخل الأجنبي، وتذكير الشعب بمجده وتاريخه العظيمين، مما أدى إلى إذكاء الوعي القومي في نفوس الجماهير الشعبية، وشنها غارة شعواء على الاستعمار وأعوانه حتى تخلَّصت البلاد من براثنه، وانتفضت انتفاضتها الخالدة، التي أعادت إلى المغرب حرّيّته واستقلاله.

ونذكر في طليعة هذه الطائفة من الشعراء الوطنيين، علال الفاسي، والمختار السوسي، والمكي الناصري، والشهيد محمد القري، ثم تلتها طائفة أخرى، قالت الشعر الوطني والاجتماعي، ولم تقصر في ميادين الشعر الأخرى، ولاسيّما الشعر العاطفي، وهذه أمثال عبدالرحمن حجي، وعبدالقادر حسن، الذي كان أول شاعر مغربي حديث، طبع له ديوان، ومحمد مكوار، الذي طبع له هو الآخر ديوان شعر، وعبدالمالك البلغيثي، وله أيضاً ديوان مطبوع، وعبدالقادر المقدم، وله كذلك ديوان مطبوع، وعبدالمجيد بن جلون، وعبدالكريم بن ثابت، ومحمد الحلوي، وعبدالغني

سكيرج، وإدريس الجاي، وعبدالوهاب بن منصور، وأبوبكر اللمتوني، وناصر الكتاني، وحماد العراقي، وأحمد البقّالي، وعبدالسلام العلوي، وإبراهيم الإلغي، وعبدالرحمن الدكّالي، ومحمد الصقلي، وإدريس العلمي، وغيرهم ممن لا أستطيع إحصاءهم ها هنا لضيق المجال، وإن كان الأمر الذي لا شكّ فيه، أن منتخبات من أشعارهم تؤلِّف مجموعة ضخمة من الشعر الحديث في المغرب الجديد. على أن النثر في هذا العهد، كان أعظم مادة من الشعر، والإنتاج فيه أوسع بكثير من الإنتاج الشعري. وقد رافق النثر وتطوُّره ظهور الصحافة وتطوُّرها، فظهرت في الأول المقالة الاجتماعية، ثم السياسيّة، وبتأسيس الصحافة الأدبيّة، ظهرت البحوث التاريخية واللّغوية، والأقصوصة والقصّة، ثم ظهرت المؤلَّفات في الموضوعات المختلفة. ومن المجلّات التي كان لها انتشار وتأثير في توجيه الحياة الفكرية: مجلّة «السلام»، و«رسالة المغرب»، و«الثّقافة المغربية»، و«المغرب الجديد»، و«لسان الدين»، و«الإرشاد الديني»، و«الأنوار» و«الأنيس»، و«المعرفة»، وأخيراً مجلّة «دعوة الحقّ» و«رسالة الأديب».

ومن كُتَّاب هذه المجلّات السابقين واللاحقين الأساتذة: محمد بن الحسن الوزاني، ومحمد داود، ومحمد بنونة، ومحمد الطنجي، وعبدالخالق الطريس، والمكي الناصري، وعلال الفاسي، وعبدالعزيز بن إدريس، وسعيد حجّي، وإدريس الكتاني، وعبدالرحمن الفاسي، وعبدالمجيد بن جلّون، وعبدالكريم غلاب، وعبدالله إبراهيم، ومحمد القباج، ومحمد أبا حنيني، ومحمد المتوني، والتهامي الوزاني، وعبدالوهاب بن منصور، وإبراهيم الكتاني، وعبدالهادي التازي، ومحمد التطواني، ومحمد عزيمان، ومحمد العربي الخطابي، والمهدي بنونة، ومحمد الحبابي،

وعلال الجامعي، وحسن السائح، ومحمد الصباغ، وإدريس بن جلون، وعبدالعزيز بن عبدالله، وعبدالهادي بوطالب، وعبدالقادر زمامة، ومحمد بن الحبيب، وقاسم الزهيري، وعبدالقادر الصحراوي، ومحمد بن تاويت، وأحمد زياد، وعبداللطيف الخطيب، وغيرهم، وغيرهم، ممن لم تحضرني أسماؤهم الآن، وقد امتاز على الخصوص بكتابة المقالة السياسيّة: عبدالخالق الطريس، ومحمد الوزاني، وعلال الفاسي، والمكي الناصري، وقاسم الزهيري، وعبدالهادي بوطالب، وبكتابة الأبحاث الأدبيّة والتاريخيّة: محمد بن تاويت، ومحمد الفاسي، وعبدالعزيز بن عبدالله، وعبدالوهاب بن منصور، ومحمد القباج، ومحمد المتوني، ومحمد التطواني، وعبدالقادر زمامة، وبكتابة المقالة الاجتماعية: محمد بنونة، والتهامي الوزاني، وإدريس الكتاني، وعبدالكبير الفاسي، وبكتابة القصّة: عبدالمجيد بن جلون، وعبدالعزيز بن عبدالله، وعبدالرحمن الفاسي؛ وبالكتابة على الطريقة الرمزية: محمد الصباغ، وامتاز من هؤلاء جميعاً بكثرة الإنتاج والتأليف، عبدالعزيز بن عبدالله، وعلال الفاسي، ومحمد داود، ومحمد المتوني، ومحمد المختار السوسي، والتهامي الوزاني، وعبدالمجيد بن جلون، ومحمد الصباغ، وعبدالكريم غلاب.

ولم يظهر حتى الآن أديب ذو نزعة خاصّة، ولا أدب ينتمي لمذهب من المذاهب الأدبيّة المعروفة.

«المجمع العلمي العربي» - يناير 1963

أنور الجندي
مؤرِّخ الأدب العربي المعاصر

مهما قِيل في توجيه النظرية الإقليمية في الأدب والتنويه بالمذاهب المتفرِّعة عنها فإن الذي تراه هو أن الأدب العربي يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحَّد، وأن أنصار الإقليمية ينهزمون كلّ يوم في ميدان الأدب وفي ميدان السياسة على السواء. لأن أمر العرب إلى وحدة وكلمتهم إلى جمع وإن جد المستعمرون وأذنابهم في تفرقتهم والتضريب بينهم.

ولقد كنا ومازلنا نعتقد أن الأدب العربي وحدة لا تتجزأ، وأن ما يجد فيه من مذاهب واتجاهات هي وليدة تفاعل أفكار الأدباء العرب والتيارات الفكرية الحديثة التي طرأت على الأدب العربي بواسطة الترجمة عن الآداب العالمية والاطلاع على الثّقافات الأجنبية المختلفة، وليس شيء منها متولِّداً عن طبيعة الإقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم أن يعلل ذلك، ولا نستدل إلّا بأن أي مذهب أو اتجاه ظهر في بلد من بلاد العرب، لا يلبث أن يتردَّد صداه في بقية هذه البلاد وينمو ويزدهر على يد أبناء العرب كافة كما كان الأمر فيما مضى حين كانت طريقة المتنبي التي ظهرت في المشرق تجد من أبي القاسم بن هانئ راعياً لها في الأندلس حتى سُمي بمتنبي المغرب. وكان البحتري يتمثَّل في ابن زيدون، والمعري وابن شهيد، هذا في رسالة التوابع والزوابع وذلك في رسالة الغفران، يكادان يَرِدان من نبعٍ واحد.

ولما ظهر التوشيح في بلاد المغرب وراجت سوقه بين أدبائها لم يتردَّد أبناء المشرق أن اصطنعوه واستكثروا منه حتى ألَّفوا فيه كتباً مخصوصة.

كذلك كان الأمر في الوقت الحاضر، فما أن ظهر بعد الحرب العالمية الأولى ما يُسمَّى بالأدب المهجري من إنتاج الأدباء اللبنانيين والسوريين المستوطنين في الأميركيتين حتى انتشر في العالم العربي وقلَّده الأدباء هنا وهناك. وفي فجر ظهوره وانتشار آثاره الأولى لجبران ونعيمة وأمين مشرق وغيرهم كان عندنا في طنجة محمد الحداد يكتب بذلك الأسلوب ويضرب على تلك النغمة حتى تجسيد أحد رواد ذلك المذهب. والآن نرى انتشار ما يُسمَّى بالشعر الحُرّ في العالم العربي وتجارب دعاته وتحمسهم لبدعتهم، بحيث لا يخلو قُطر من الأقطار العربيّة من حامل لراية هذا المذهب، فكيف يكون ذلك إلّا إذا كان الأدب الغربي مظهراً لوحدة العرب ومادة عضوية في تكوين هذه الوحدة.

إن الذين يفهمون هذه الحقيقة كثيرون، ولكن نشاط دعاة الإقليمية كان يطغى عليهم. ثم وقع الجزر في مَدّ هذه الطائفة فاختفت أو كادت تختفي أمام الشعور الفيَّاض الذي يغمر الشعوب العربيّة بوحدة تراثهم نتيجة لوحدة جنسهم ولغتهم وآمالهم وآلامهم.

وأمامي الآن عمل من أضخم الأعمال التي تشهد لهذه الفكرة وتدعم هذا الاتجاه، وهو ثلاثة مجلدات ضخام من تأليف الأديب المصري المعروف الأستاذ أنور الجندي، كلّ مجلد منها يؤرِّخ لناحية من نواحي النشاط الأدبي الذي قام في بلاد العرب منذ فجر النهضة الحديثة إلى الآن. فأولها يتناول موضوع «المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر» وثانيها يهتم بدراسة «المعارك الأدبيّة» في الشعر والنثر والثّقافة واللّغة والقومية والحضارة في العالم العربي الحديث، وثالثها يختص بمبحث «الأدب الحديث» في معركة المقاومة والتجمُّع من المحيط إلى الخليج.

وهذه العناوين ليست دعاية فارغة، بل هي واقع وحقيقة يتلمَّسها القارئ في كلّ صفحة من صفحات هذه الكتب التي لا تقلّ في أصغرها عن خمسمئة صفحة.

ومن عرف نشاط الأستاذ أنور الجندي وما له من عشرات المؤلَّفات في مسائل الأدب والتاريخ والفكر عامّة، يدرك مبلغ الإحاطة التي لكتبه هذه بالشاذة والفاذة من المسائل التي تناولها فيها.

فالمجهود جبار لا يتأتى إلّا لجماعة من المختصين المنقطعين لهذا النوع من التأليف لو كانوا هناك، ولكن واحداً من ذوي الهمم العالية والصبر المنقطع النظير والفهم العميق للأوضاع الفكرية القائمة في مختلف بلاد العرب التي تتداعى فيها الاتجاهات والأنظار، هو أنور الجندي، استطاع أن يقوم بهذه المهمة الشاقة وأن يؤديها بمفرده على أتم وجه.

إنها في الحقيقة موسوعة أدبيّة تضاهي في قيمتها التاريخية، بالنسبة للأدب العربي الحديث، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان الشهير، على أنها حسب برنامج الأستاذ المؤلِّف مايزال لها ذيول طويلة تخرج بها في عشرة مجلدات تتناول معركة التغريب في الفكر العربي والصحافة السياسيّة في الأدب العربي المعاصر والشعر العربي المعاصر والقصّة العربيّة المعاصرة ومعالم الأدب العربي المعاصر بين الحربين ومعالمه بعد الحرب الثانية، وحقائق السياسة والفكر والاجتماع في الأمة العربيّة، وهو برنامج حافل نرجو للأستاذ أنور الجندي أن تُتاح له وسائل تحقيقه مع متمنياتنا له بدوام الصحة والعافية وأنه لمحقّقه بحول الله.

«المجمع العلمي العربي» - إبريل 1963

الدين والأدب

أن يظفر بكتابٍ قَيِّم هديةً من مؤلِّفه، وأن يكون هذا المؤلِّف هو رائد الفكر العربي الحديث الأستاذ عباس محمود العقاد، ثم أن يكون الكتاب من آخر ما صدر له، وأن يتفضَّل بتجليده تجليداً لطيفاً، ويتوجَّه بعبارة الإهداء التي تشعرك باهتمامه بك وحظوظك لديه، إن ذلك لمنتهى التقدير وغاية الودّ.

والحقيقة أنهما كتابان أولهما يدخل في باب الدراسات الدينية، وهو الذي يحمل اسم «التفكير فريضة إسلامية»، وثانيهما يتناول مباحث لغوية وعنوانه «أشتات مجتمعات في اللّغة والأدب»، ولَعلّ الأستاذ راعى في تنويع الهدية أن تكون شاملة للموضوعين اللذين يستأثران باهتمامي ويغلب عليّ أن أنزع إليهما وهما موضوعا الدين والأدب، وذلك منه فضل آخر يدل على مزيد من اللطف والرعاية.

إنني هنا لست بصدد تقديم الأستاذ الكبير فإنه أعرق من أن يعرف، وأعتقد أنه ليس في العالم العربي اليوم مثقف لا يقدر ما قدَّمه العقاد للّغة العربيّة والأدب العربي والفكر العربي بعامة من خدمات جلى تتصل بالإحياء والتجديد والتأصيل، فضلاً عن دراساته الإسلامية الرائعة التي قوَّمت من زيغ الاعتقاد عند الجيل الطالع، وهدت من خلال الاستخفاف

بالمدنية الإسلامية الذي سرى إلى كثير من الدارسين الشرقيين بالعدوى من أساتذتهم الغربيين المنطوين على حقد كمين، وتعصُّب غير قليل ضد الإسلام ودعوته السامية.

والذي يوحي بالإكبار لجهود هذا الرائد وشخصيته الفذَّة أنه منذ كان وهو على هذا السنن اللاحب والصراط المستقيم، لم تحفظ عليه فلتة في التقليد الأعمى ولا في التفكير المنحرف، حتى مذهبه السياسي كان دائماً مع الوطنيّة الصادقة وقادتها الأبرار من طبقة مصطفى كامل وسعد زغلول، فلما صارت الوطنيّة مهنة واحتراماً نأى بجانبه ولم يرضَ أن يكون مطيّة لمتزعِّم ولا لمتسلِّط.

وفي دائرة العمل لرفع شأن الدين الإسلامي والدفاع عن اللّغة العربيّة التي تستهدف اليوم لحملات كثير من الجهال والعقَقَة من أبنائها، أصدر الأستاذ العقاد كتابيه اللذين نحن بصددهما فلننظر فيهما نظرة عجلى إذ كان من غير الجائز أن نستوعب الكلام عليهما في مقالٍ واحد يرمي إلى التعريف أكثر مما يرمي إلى التحليل.

فكتاب التفكير فريضة إسلامية يكفي عنوانه لمعرفة الاتجاه الذي وجهه فيه المؤلِّف أنه اتجاه فلسفي يُحدِّد نظرة الإسلام إلى الحياة والكون وما تشاجر حولهما من آراء ومذاهب منذ أن وُجِدَتْ الفلسفة وحاول الإنسان تفسير غوامض هذا الوجود، وحين يكون الميدان للتفكير والنظر الفلسفي والحِجَاج فناهيك بأصالة الموانع والأعذار، المنطق، الفلسفة، العلم، الفَنّ الجميل، المعجزة، أمام الأديان، الاجتهاد في الدين، التصوُّف، المذاهب

الاجتماعية، العرف والعادات، فضلاً عن الخاتمة.

فأشاد الفصل الأول بمقام العقل فــي الإسلام على اختلاف وظائفه وخصائصه من عقلٍ وازع وعقلٍ مدرك وعقلٍ حكيم وعقلٍ رشيد، واستخرّج دلالات ذلك كلّه من القرآن، ثم عرج فــي الفصل الثاني على ما سمَّاه بــ «الموانع والأعذار» وقد بناه على أنه إذا كان تحكيم العقل أمراً إلهياً فيمتنع تعطيله مرضاة لمخلوق أو خوفاً منه، وقال في هذا الصدد: «والإسلام لا يقبل من المسلم أن يُلغي عقله ليجري على سنة آبائه وأجداده، ولا يقبل منه أن يُلغي عقله خنوعاً لمن يسخره باسم الدين فــي غير ما يرضي العقل والدين، ولا يقبل منه أن يُلغي عقله رهبة من بطش الأقوياء وطغيان الأشداء، ولا يكلفه فــي أمر من هذه الأمور شططاً لا يقدر عليه، إذ القرآن الكريم يكرِّر فــي غير موضع «أن الله لا يكلِّف نفساً ما لا طاقة لها به، ولا يطلب من خلقه ما لا يستطيعون» وفرَّق فــي فصل المنطق بين المنطق كعلم يتوصل به إلى تحقيق الحق وتمييز الخطأ من الصواب، والمنطق كأداة للجدل والمراء والغلبة والإفحام بأي صفة، فبيَّن أن موقف التحفظ الذي وقفه بعض العلماء المسلمين من المنطق إنما كان موجهاً إليه بالمعنى الأخير وأفاض فــي ذلك بما لا كفاء له فــي قوة الحجة والبرهان، كذلك فعل فــي فصل الفلسفة بعد أن حدَّد معناها قديماً وحديثاً وألمَّ بمذاهب أقطابها من يونان وغيرهم، فذكر أن الأمة الإسلامية «كانت أرحب صدراً وأسمح فكراً مع الفلسفة اليونانية من بلاد العالم اليوناني الذي نشأت فيه، كما يُؤخذ من مصائر الفلاسفة بين أبناء العالم اليوناني ومصائر الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين فــي بلاد

الإسلام» ولا يتسع المجال للإشارة إلى ما فــي هذا الفصل من آراء صائبة وأحكام سديدة، وإنما يحسن التملي بقراءته.

وفصل العلم فــي الكتاب ليس سرداً للأقوال المعروفة فــي تمجيد الإسلام للعلم وإعلائه من شأنه، ولكنه ما ينتظر من عبقرية العقاد من بيان حقيقة العلم والمراد به عند الإطلاق من طرف جهابذة العلماء الكونيين وتطبيق تعاليم الإسلام على ذلك وإظهار مساوقته لآخر مفاهيم العلم فــي نصوصه وقوانينه.

ويستهل الأستاذ العقاد فصل الفَنّ الجميل بهذه المُقدِّمة الجميلة «كثرة الأنصاب والتماثيل فــي المعابد والبيع ليست بالمقياس الصحيح لنصيب الفنون الجميلة من الدين الذي يُدان به فــي المعبد أو البيعة، لأن المعابد الوثنية كانت تتسع للأنصاب والتماثيل وليست النموذج الصالح للأديان فــي الهداية إلى معاني الجمال والحض على الفنون الجميلة، وهي فــي جملتها لا تخلو من العبادات البشعة والشعائر القبيحة والعقائد التي لا تجتمع والجمال فــي شعور واحد».. فيقرطس الهدف من أول وهلة ويوحي للأغرار الذين لا يقدِّرون ما جاء فــي الإسلام من فكرة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وقطع السبيل على أتباعه فــي التعلُّق أو التطلُّع إلى ما سوى الله الواحد الأحد، بأنهم لا يعدون أن يكونوا ممن غرَّر بهم الشيطان فقالوا: «اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة» لجهلهم عظمة الإسلام وعظمة العمل الذي قام به النبي - صلى الله عليه وسلم - فــي تحطيم الأوثان والأصنام.

ثم يسترسل الفصل فـي بيان متدفق لمكانة الفنون فـي الإسلام كما تسترسل الفصول الباقية من الكتاب فـي بلاغة مشرقة وإحاطة شاملة لكلّ ما يتعلَّق بمادتها الأساسية من حيث ارتباطها بالإسلام وتعرض دعوته لها، مما يمنعنا من تتبعه مخافة التطويل مع عدم إغناء ذلك عن قراءة الكتاب لمعرفة قيمته والاستفادة منه أتم استفادة.

وننصرف للنظر فـي الكتاب الثاني فنجد أن عنوانه «أشتاتاً مجتمعات فـي اللّغة والأدب» هو يعكس سابقة أَقلّ تعبيراً عن محتواه، ذلك المحتوى الذي يكبر بكثير عما يدل عليه هذا العنوان المتواضع، ولست أقصد الكَمّ بل الكَيْف، والكَيْف هنا يعني المسائل المبحوثة وطريقة بحثها، فإنها وإن كانت عبارة عن مقالات، إلّا أنها مما ينتظم فـي سلك واحد، وتضمه جامعة البحث اللّغوي الذي يُعْنَى بإبراز مكانة اللّغة العربيّة بين اللّغات العالمية الصالحة لأداء رسالة العلم والثّقافة فـي هذا القرن العشرين وتصحيح الأخطاء التي يقع فيها الزارون عليها، والمستحقون بها جهلاً أو تجاهلاً، وهكذا ينسجم موضوع الكتاب خلافاً لما يعطيه اسمه من أنه أشتات، وباعتبار أنه هو موضوع الساعة فـي المباحث اللّغوية التي تتداولها الأقلام اليوم للّغة العربيّة أو عليها، وما أتى به المؤلِّف من مقارنات وأدلى به من أنظار تعدّ فتحاً جديداً فـي تقييم هذه اللّغة وردّ اعتبارها إليها، فإننا نرى أنه لو جعل كتابه هذا إحدى عبقرياته وأطلق عليه «عبقرية اللّغة العربيّة» لما كان مسرفاً فـي ذلك ولما أنكره عليه أحد.

ويرجع الأستاذ العقاد خطأ اتهام العربيّة فـي كفايتها إلى قصور التراجمة الأولين الذين بدأوا بالنقل عن اللّغات الأجنبية فـي فجر النهضة

الحديثة، ويضرب الأمثلة على ذلك، ثم إلى التطفل على الكتابة الأدبيّة من غير أهلها، فإذا أراد ناقد من هذا القبيل أن يعلل خلو الشعر العربي من الملاحم المطولة مثلاً لم يحجم عن أن يجعل سبب ذلك عدم طواعية أوزان العروض العربي أو التزام العرب للقافية الواحدة فـي أشعارها إن لم يقل بقصور الخيال العربي بل السامي إطلاقاً عن صياغة هذا النوع من الشعر.

ويتتابع الكُتّاب والتراجمة تقليداً فـي هذه الأخطاء، وتحمل العربيّة وزراً ليس لها فيه يد، ثم تأتي مسؤولية المستشرقين فـي إشاعة هذا الاتهام، والمستشرقون قوم غرباء عن اللّغة العربيّة، درسوها فـي المعاجم والقواميس فحفظوا شيئاً من متنها وغابوا عن بلاغتها وبيانها فلم يفهموا مجازها ولا استعارتها ولم ينشأ عندهم ذوق أدبي يمكنهم من الاطلاع على أسرارها وخصائصها فحكموا عليها حكماً جائراً تبعهم فيه كثير من أبناء العرب المقصرين والقليل منهم من تنبَّه إلى خطاهم، كما أن القليل النادر من المستشرقين من عرف قيمة العربيّة ونوه بها.

وكانت أحكام أولئك المستشرقين على اللّغة العربيّة والأدب العربي والثّقافة العربيّة بعامة، وهي كما رأينا مستندة إلى قصور بالغ فـي اكتناه هذه الأشياء، أكثر أثراً فـي إلصاق تهمة العجز بلغة الضاد نظراً لكونهم على ما استقرّ فـي أذهان بعض الناس إنما يتكلّمون عن علم فأقوالهم لا يرقى إليها الشك.

ويتحدَّث الأستاذ العقاد عن بعض المقارنات التي يقوم بها أناس ممن

يتهمون اللّغة العربيّة فــي أشياء عرضية تفارق بها غيرها من اللّغات فيقول: «ولا سبيل إلى تحقيق كفاية هذه اللّغة للنهوض بأمانة العلم والثّقافة من طريق هذه المقارنات التي لا تقوم واحدة منها على أساس صالح للمقارنة، إنما المقارنة الصحيحة التي تسفر عن تحقيق كفاية هذه اللّغة بين سائر اللّغات هي المقارنة على أساس ثابت من علم الألسنة الحديثة، وهو العلم الذي يبحث فــي تطوُّر اللّغة من حيث هي كيان حي نام صالح لأداء وظائفه ومجاراة أمثاله فــي معترك البقاء، فإذا قيس اللسان العربي بمقاييس علم الألسنة فليس فــي اللّغات لغة أوفى منه بشروط اللّغة فــي ألفاظها وقواعدها، ويحق لنا أن نعتبر أنها أوفــى اللّغات جميعاً بمقياس بسيط واضح لا خلاف عليه وهو مقياس جهاز النطق فــي الإنسان فإن اللّغة العربيّة تستخدم هذا الجهاز الإنساني على أتمه وأحسنه ولا تهمل وظيفة واحدة من وظائفه كما يحدث ذلك فــي أكثر «الأبجديات» اللّغوية.. فلا التباس فــي حرف من حروفها بين مخرجين ولا فــي مخرج من مخارجها بين حرفين وقد تصححت فيها الحركات الصوتية الثلاث بين الفتح والضم والكسر، فمضت فيها فصاحة النطق على إبطال الإمالة بين هذه الحركات وإخراجها كلّها مستقيمة مميَّزة، كما يشاء معنى الإفصاح وهو فــي جوهره إزالة اللبس فــي الأصوات والحركات.

ولم يحدث لأبجدية أخرى غير الأبجدية العربيّة أنها جُرِبَتْ زماناً طويلاً فــي كتابة اللّغات من كلّ أسرة لسانية فلم تقصر فــي هذه التجربة عن شأو الأبجديات الأخرى، إذ كتبت بها العربيّة والفارسية والتركية

والأردية والإسبانية وهي تنتمي إلى الأصول السامية والطورانية والهندية والجرمانية وقد وجد فيها الكاتبون ما ينوب عن الحروف الملتبسة ولم يوجد فــي الأبجديات المختلفة ما ينوب عن حروب العربيّة الصريحة فــي مخارجها، بما استوفته من جهاز النطق الإنساني فــي كلّ آلة من آلاته.

وعلى هذا النمط يسيل دفاع الأستاذ العقاد عن العربيّة فــي أصالة قواعدها ووضوح إعرابها ودلالة مفرداتها وجمالها وتميُّزها بخصائص فــي التعريف والعدد وضمائر الجنس وغير ذلك مما لا يمكن أن يستوفــي الكلام عليه فــي كلام عابر وإنما نقول فيه إنه لم يرد بمثله على المهتمين للّغة العربيّة قط، سواء من حيث إبطال مزاعمهم فــي تخلُّف هذه اللّغة عن مسايرة ركب العلم والحضارة العصرية، أو من حيث رفع منارها على اللّغات كافة فــي القديم والحديث، وهذا كلام قد يستعظمه من يسمعه ولكن بينه وبين التسليم به أن يقرأ هذا الكتاب الصغير الحجم الكبير العلم المُسمَّى بـ «أشتات مجتمعات فــي اللّغة والأدب».

ولَعلّ من أبلغ السخرية التي وجهها الأستاذ العقاد للذين يدعون إلى كتابة اللّغة العربيّة بالحروف اللاتينية هذا الفصل المعنون بالحروف العربيّة أصلح الحروف لكتابة اللّغات.

ولقد قرأت فــي هذه الأيام القريبة بحثاً لبعض المفكرين فــي دلالة الفعل على الزمن فــي العربيّة وضيق هذه الدلالة عنها فــي اللّغات الأجنبية وخاصّة الفرنسية، وأتمنى لو قرأ هذا الباحث فصل الجملة الاسمية وفصل الظروف فــي اللّغة العربيّة من كتاب «أشتات مجتمعات» ليهتدي

على الأَقلّ إلى طريقة مقارنة اللّغة العربيّة باللّغات الأجنبية.

ولكن مالي وللمنقولين على كفاءة اللّغة العربيّة، وقد وهب الله لها كفؤاً بمحاولتهم جميعاً؟ أمدّ الله فـي عمره وأبقاه سالماً معافـى لخير العروبة والإسلام.

«المجمع العلمي العربي» - أكتوبر 1963

مراجعة فــي شأن تعريف «غير» وجمع معجم على معاجم

أفادنا الأستاذ عارف النكدي فــي مقال له بالجزء الثاني من المجلد الثامن والثلاثين من هذه المجلّة بوقوع مناقشة بين الدكتورين طاهر الخميري وإبراهيم السمرائي فــي مسألة إدخال «ال» على «غير» وجمع «معجم» على معاجم، نُشرت فــي مجلّة «اللّغات» بتونس. وعقَّب حضرته على ذلك بما أوضح وجه المسألة وطلب رأي أعضاء المجمع وقرَّاء مجلته ليكون الرأي رأي جماعة لا فرد، وبصفة كوني من الفريقين معاً حُبِّب إليّ أن أُدلي برأيي الذي أجمله فــي هذه المراجعة، وإِنْ كان فــي الحقيقة ليس رأياً بل تقريراً لما عند علماء العربيّة فــي هذا الشأن.

فأما إدخال «ال» على «غير» فقد نَصّ العلماء على أنه خطأ لأنها لا تتعرَّف ولو بالإضافة، وذلك لشدّة إبهامها، وأصلها أن تكون صفة لنكرة نحو «ارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل»، أو لمعرفة قريبة من النكرة نحو «غير المغضوب عليهم»، لأن المعرف الجنسي قريب من النكرة، وبهذا يُعلم أن تجويز إدخال «ال» على «غير»، بناء على أنه تعريف كتعريفها بالإضافة فــي نحو غيري وغيره، ليس بصحيح، وتساؤل الأستاذ هل قولنا غيري فعل هذا أكثر تعريفاً من قولنا الغير فعل هذا؟ يُقال عليه

صحيح أنه ليس أكثر تعريفاً منه، بل ولا هو معرفة أصلاً حتى يُنظر فــي المفاضلة بينه وبين ما حُمل عليه فــي التعريف، وإنما جاء ذلك من شدة إيهام غير التي لا يتعيَّن المُراد بها.

نعم ذهب ابن السراج إلى أن المُغاير إذا كان واحداً تعرَّفت غير بإضافتها إليه، وبه يُقيد قول السيرافــي إذا وقعت غير بين متضادين تعرَّفت، أي بين متضادين لا ثالث لهما كقولنا الحركة غير السكون والزوج غير الفرد، بخلاف القيام غير القعود فإنها لا تتعرَّف لصدقها بالاتكاء والاضطجاع ونحوهما.

وهذا كلّه فــي الإضافة، وأما «ال» فلا مورد لها هنا لأنها إما للجنس أو للعهد ولا تحقُّق لأحدهما فــي دخولها على غير، فبقي أن إدخالها عليها خطأ تساهل فيه المتأخرون ولم يقع من أحد من المتقدِّمين، والشجاعي والهوريني كلاهما متأخر لا يُحتج به.

وأما جمع معجم على معاجم فإنه مما لا ينبغي الاختلاف فيه، وليس جمعه على معجمات بأقيس منه، ولا حاجة إلى تتبع الكلمات التي جاءت على وزنه مجموعة بذلك الجمع للاستظهار بها، فإن من المقرَّر نحوياً أن مفاعل هو من باب فَعالِل الذي قال فيه ابن مالك فــي الألفية:

وبفــــعالل (وشبهه) انطقــا فــي جمع ما فوق الثلاثة ارتقى

من غير مــــا مضي.............. ....

وقد ذكروا أن شبه فعالل مفاعل وفيَاعل وفعَاول وغيرها مما هو مثله عدداً وهيئة وإن خالفه زنة كمفاعيل وفعاعيل ونحوهما، فهذه كلّها

جموع لما زاد على الثلاثة من الرباعي فما فوقه أصلياً كان أو مزيداً باستثناء باب كبرى وسكرى وأحمر ورام وكامل ونحوها، وهو ما أشار له ابن مالك بقوله (من غير ما مضى) فإن له جموعاً أخرى ذكرها فـي محلها، ويدخل فيما نحن بصدده، أعني الرباعي الذي يُجمع على مفاعل، مثلُ مُعجم ومُصحف مما أوله مضموم ومَسجد ومَعهد مما أوله مفتوح ومِعصم ومِخلب مما أوله مكسور فيُقال معاجم ومصاحف ومساجد ومعاهد ومعاصم ومخالب قياساً لا تردُّد فيه وكذا كلّ ما كان مثله.. والله أعلم.

«المجمع العلمي العربي» - يناير 1964

قيم جديدة للأدب العربي

عَرِفْتُ السيدة الدكتورة بنت الشاطئ بالشخص فـي صيف سنة 1957، وذلك بمكتب الأستاذ الكبير عادل الغضبان فـي دار المعارف بالقاهرة، وكان سيادته قبل حضورها بقليل قدَّم لي نسخة من رسالة «الغفران» بتحقيق الدكتورة فـي طبعتها الثانية التي صدرت عن الدار فـي ذلك الأسبوع، وقد راج فـي ذهني بعد التعارُف الذي تَمّ بواسطة الصديق عادل أن أطلب منها توقيع النسخة بحكم أنها المؤلِّفة ولكني أحجمت عن ذلك لأن هذا كان أول لقاء معها، وهو وإِنْ كان لقاء مشجِّعاً بما رأيته من حسن محضرها ولطف حديثها إلّا أنني لم يغب عن بالي أنها سيدة فـي عصمة رجل من رجال العلم والأدب يحظى باحترامٍ كبير.

وأنا رجل مهما تعلَّقت بهذا الأدب ووغلت على أربابه، لا أنسى أن أدبي الأول كان هو السُنَّة النبوية وأن دراستي الرسمية كانت دراسة دينية وعلى النهج المأثور، فلا أكتم أن مانعي الحقيقي من أن أطلب توقيع الدكتورة هو استحضاري لواقعة حال شبيهة بحالي، وهي تتضمن سلوكاً ما كان لمثلي إلّا أن يتقيَّد به وأعني حديث النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – عن عمر فيما رواه البخاري: اطلعت فـي الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت

غيرته، فوليت مدبراً، فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟

ولا يفوتني أن أقول إنني إذا لم أتجاوز الحَدّ فــي طلب التوقيع، فقد تحدَّثت إلى الدكتورة حديث المعجب بأدبها وعلمها وأنصت إليها وهي تتحدَّث عن اشتغالها بـ «رسالة الغفران» وما بذلته من جهد فــي تحقيقها، وسألتها: هل يعينها الأستاذ زوجها فــي أعمالها الأدبيّة؟ فقالت إن الأستاذ هو الآخر مشغول بأعماله الكثيرة لا يفرغ إلى مثل هذه المعونة، وزادت تقول: إنها ترزح تحت أعباء ثقيلة من الإشراف على تدبير البيت وتربية الأولاد والتدريس، فزاد إعجابي بهذه البطلة، وعند الانصراف تفضلَّت فوصَّلتني إلى الفندق الذي أنزله فــي سيارتها التي تسوقها بنفسها فودعتها وحمَّلتها تحياتي إلى الأستاذ زوجها.

والمقصود القول إن الإنسان لا يترك شيئاً بنية حسنة وأدب جميل إلّا عوَّضه الله خيراً منه، فقد تكرَّرت زيارتي للقاهرة بعد ذلك، وتكرَّر لقائي للسيدة الدكتورة، وإذا بكتبها تتواتر إليّ، مع عبارة الإهداء والتوقيع المرغوب، ومنها كتاب قَيِّم جديد للأدب العربي الذي يُساق الكلام إليه.

وقد خصَّصت هذا الكتاب من بين كتبها بالحديث لأنه دراسة طابعها التجديد، ومحاولة ناجحة لوضع قيم حقيقية للأدب العربي لا جديدة فقط، لأن الجديد قد يبلى والحقيقة ثابتة لا تزول، فقد تنبَّهت الدكتورة إلى أن هذه الصورة الرسمية التي يقدَّم بها الأدب العربي منذ عصر الجاهلية إلى العصر العباسي ليست هي الصورة الحقيقية لهذا الأدب، وأن خطأً رفيعاً يفصل بين مهمة الأدب الأولى وهي الأدب للحياة وبين ما حاولت تلك الصورة الرسمية بتواطؤ النُقَّاد القدماء أن تجعل منه مهمة الأدب

الوحيدة، هي الأدب للبلاط إِنْ صح هذا التعبير، فأخضعت جميع نصوص الأدب العربي أو على الأصح جميع تراثنا الشعري لهذا الاعتبار وحكمت عليه وعلى عامة شعرائنا بمقاييس مستوحاة من جو السياسة والحكم ومحيط ذوي النفوذ والسلطان، فكلّ من ركع بين يدي ملك أو خليفة رفعته الرسميات إلى الطبقة الأولى، وصار هو الشاعر الطليعي لجيله، وآثاره هي النماذج المختارة لعصره، فالنابغة في الجاهلية، وجرير في العصر الأموي، ومروان بن أبي حفصة في العصر العباسي، وأضرابهم هم الشعراء المقدَّمون على مَنْ سواهم من شعراء عصورهم.

وقول الأول يخاطب النعمان:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقول الثاني يمدح المروانية:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح؟

وقال الثالث يحتج للعباسيين على العلويين:

أنى يكون وليس ذلك بكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام؟

وأمثال هذه الأقوال، هي النماذج الرسمية في الدراسات الأدبيّة إلى عصرنا هذا. فهل هذه هي حصيلتنا من الأدب العربي طوال قرون؟ وهل حقاً إن أولئك الشعراء المتملقين هم النخبة التي تمثل الشعر العربي في عنفوان مجده؟ ألم يقل العلماء إن الشاعر كان للقبيلة بمثابة القائد والزعيم يدافع عن أحسابها ويخلِّد مآثارها؟ وأن تكسُّب النابغة والأعشى

بالشعر غضَّ من قدرهما ونال من شرفهما؟ ومعنى ذلك أن الشعر رسالة فــي الحياة، وأنه من قبل أن يكون حرفة، فهل يصدق ذلك على الشعر العربي فــي أدواره المختلفة؟ وهل قام شعراؤنا الأقدمون بما يُطلَب منهم فــي هذا الصدد؟

ذلك هو ما تجيب عنه الدكتورة فــي كتابها (قيم جديدة للأدب العربي)، وتثبته بالأدلة والشواهد، فتبين كيف انحرف فهم النُقَّاد القدماء لتراثنا الأدبي، وكيف ضلَّت المقاييس التي وضعوها لوزنه وتقديره، وتجعل من المعارك التي خاضها الشعر فــي الجاهلية والإسلام لمقاومة التسلُّط والطغيان وإقامة موازين الحق والعدل قواعد ومقاييس لنقده وتقييمه، فنعيد للأدب العربي اعتباره، وترفع بين الآداب الإنسانية منارة، واستمع إلى قولها فــي ذلك: «ومستقبلنا بلا شك معركة فكرية، بعد أن انقضى عهد الاستعمار العسكري، ولا مفرّ لنا من خوض هذه المعركة لأن وجودنا الكريم لا يحميه إلّا صون مقاوماته المعنويّة، وهنا يأخذ الأدب دوره فــي نضالنا الجديد، حارساً لمعنوياتنا، وكما لاذ أسلافنا باستنقاذ تراث العربيّة الأدبي والفكري فــي صراعهم مع الشعوبية، وكما حموا به العربيّة ديناً ودولة فــي مهب الإعصار النثري نلوذ به اليوم لحماية وجودنا فــي مهب تيارات الغزو الفكري، ولن ينهض الأدب بهذا الدور الجليل فــي المعركة ما لم نتحرَّر من الرواسب التي شوَّهت تراثنا الأدبي، وما لم ننجُ فــي ذوقنا له من سيطرة الأذواق التي ورثناها من مخلَّفات عهود الضعف والانحطاط، بل لن تقوم للأدب العربي فينا قائمة ما لم نلغِ الأسوار التي عزلت أبناءنا وأجيالاً قبلهم، من أجمل ما لنا من تراث فنِّي ولم نمحُ الظلال التي حجبت عنهم بهاءه حين فرضت عليهم

نماذج بعينها من الشعر راجت فــي ظِلّ الطغيان وأشخاص بذواتهم من الشعراء والكُتَّاب يدينون بشهرتهم وذيوع صيتهم لتعلُّقهم بركاب الحكام، أيام كانوا فــي عزلة عن الشعوب».

إنني أهنئ الدكتورة بتوفيقها فــي هذه الدراسة القيِّمة وأتمنى لو تتسع فيها وتستمر حتى تشمل العالم العربي بجناحيه وتصل إلى ما بعد العصر العباسي من عصور حُكِمَ عليها ظلماً بالعقم والضحالة، إذ كان النظر إليها إنما يقع من هذه الزاوية التي ازدادت ضيقاً بحكم تسلُّط الأعاجم على بلاد العرب واستغنائهم عن الشعر والشعراء، فاستغنى النُقَّاد منهم والمحدثون عن النظر فــي تراثنا الفكري الجديد لما صار لا يمت إلى حياة البلاط بصلة، وطُويت صحف كثيرة كان يمكن أن يكون لها صدى ودوي فــي حياتنا الأدبيّة لو وجدت العزائم النافذة والأقلام السيَّالة التي تنخلها وتبرز للناس ما فيها من ذخائر وكنوز.

«المجمع العلمي العربي» - إبريل 1964

لغة العلوم

... إن بلادنا العربيّة بلاد نامية اقتصادياً، ولكنها علمياً بلاد متقدِّمة، لأن لها ثقافة روحية وتشريعية عظيمة، ولها أدب عالمي خالد، ولغتها بالمكانة التي ذكرت، فليس ينقصها إلّا تكوين علمي تقني سريع لتلحق بالركب الطلائعي التقدُّمي وتجبر خللها الاقتصادي الذي يلز بها في حظيرة الشعوب النامية. وربما كان هذا التكوين هو ما يعنيه ووستر بالتدريب الفَنّي على ما جاء في آخر كلامه.

ويؤيد هذا أن الحكومة المغربية استقدَّمت لجنة من خبراء البنك الدولي للإنشاء والتعمير بقصد الاستشارة، فكان من رأيها أن ازدواجية لغة التعليم هي مما يستنزف مالية المغرب (تبلغ ميزانية وزارة التهذيب الوطني المغربية 50 ملياراً من الفرنكات يُصرف معظمها في أجور الأساتذة الفرنسيين)، فضلاً عن كونها السبب في هبوط مستوى التعليم، وأوصت باعتماد لغة البلاد وجعلها اللّغة الأساسية للتعليم.

ولقد يعجب القارئ من إخلاص هذه اللجنة الأجنبية وإشارتها الصائبة، ولكنه إذا ذكر أنها لجنة مالية لا ثقافية، وأن ما قامت به هو مقارنة الأرقام بين الموارد والمصارف، في قطاعات المصالح الحكومية، فلم يكن يهمها التمكين لهذه الجهة أو تلك وإنما غرضها إيجاد وضع مالي سليم

- إذا ذكر ذلك زال عجبه وعرف سر تلك النصيحة الخالصة.

وعليه فإن ما بيننا وبين تخطي عتبة التخلُّف هو نشر التعليم بلغتنا القومية، ورفع مستوى شعوبنا من الأمية العلمية التي تتخبَّط فيها إلى مستوى الشعوب المتعلِّمة المتمرِّسة ببسائط العلوم ونواميس الطبيعة، أي نقل العلم إلى المجتمع العربي وجعل أفراده يدركون حقائقه وبديهياته كما يدركها أي فرد في مجتمع راقٍ من المجتمعات المعاصرة، ولن يكون إلّا إذا تعلَّم الشعب العربي بلغته الأم، وطوَّع لسانه على التعبير عما يشاهده ويحسه بألفاظ يعرف مبناها ومعناها. أما أن يتعلَّم عدد من الأشخاص بلغة أجنبية فمعناه نقل هؤلاء الأشخاص إلى عالم العلم وزيادة عدد المتعلِّمين في اللّغة التي تعلَّموا بها، فلا تستفيد شعوبهم كبير فائدة منهم لأن التفاهم بينها وبينهم معدوم، بسبب اللّغة التي هي أكبر حاجز يمنع هذا التفاهم، بل يمنع حتى الاتصال. ولَعلّ هذا هو السر في أن النهضة العلمية في بعض الأقطار العربيّة بدأت منذ نحو قرن ومازالت لم تؤتِ أكلها على النحو المرغوب، ومازال الشعب العربي فيها يعيش بعقلية القرون الوسطى.

يُشير بعضهم إلى وجود ملاحقة ركب المعرفة وضرورة الاتصال بأوساط العلم في آخر ما أنتجت من أجل التقدُّم الإنساني المطّرد، قائلاً إن ذلك لا يتأتّى إلّا لمن تلقّى تعليمه العالي بإحدى هذه اللّغات الأجنبية الحيَّة، ونحن نقول إنه يتأتّى لمن أتقن لغة من تلك اللّغات ولا يلزم أن يتلقّى تعليمه العالي بها، وقد قلنا بضرورة تلقين لغة أجنبية أو لغتين منذ المرحلة الثانوية للتعليم. وإنما الذي ينبغي تأكيده هو أن يكون هذا التلقين قوياً ليتقن المتعلِّم تلك اللّغة كما هو الحال عند غيرنا من الأمم

والشعوب. فإذا جاءت مرحلة التعليم العالي وحصل الطالب على الدرجة العلمية المنشودة بلغته الأصلية كان عنده من الوسائل العملية ما يؤهله لمواكبة قافلة البحث العلمي والتقني في العالم بكلّ نجاح إن هو أراد ذلك. وهذا هو ما يفعله العالم الفرنسي والألماني وغيرهما من علماء الأمم التي تقف في الصف الأول من حيث التصنيف في التقدُّم والحضارة. وكذا علماء غير هذه الأمم ممن يقفون في الصف الثاني وإن كانوا في الطريق وعلى وشك اللحاق بأولئك، فليس منهم من يدرس العلوم في بلاده بغير لغته القومية، اللهم إلّا أن يستمع لأستاذ أجنبي تستقدمه جامعته لإلقاء بعض المحاضرات في فرعٍ من فروع المعرفة يكون له فضل علم به، أو يذهب في بعثة دراسية إلى بلدٍ أجنبي، وحينئذ تكون اللّغة الأجنبية التي لقنها في الثانوي هي وسيلته للدراسة، وهو بإقامته في ذلك البلد الأجنبي لابد أن يتقوى في لغته حتى يمكنه مواصلة تعليمه بها.

وعلى كلّ فإن الاطّلاع على دنيا العلوم وما يجدّ فيها من تجارب وكشوف، مرهون بالهمة والنشاط وحب المعرفة أكثر من أي شيء آخر، فكم من دارس بهذه اللّغة الأجنبية أو تلك قد تمكَّن منها كلّ التمكُّن وصار أعرف بها من كثير من أهلها، وإذا تكلَّم بها فإنه لا يخرم حرفاً ولا نبرة من نبراتها، ولكنه في مجال العلم والبحث والاطلاع صفر على اليسار، لقد انقطع ما بينه وبين التحصيل منذ تخرُّجه، ولم تفد منه أمته شيئاً يذكر. بل هو يُشكِّل خصماً لها بما أنه تنكَّر لمعارفها ولغتها حتى لقد أصبح عبئاً ثقيلاً على مجتمع لا يستسيغه ولا ينسجم وإياه.

وبالعكس فإن هناك دارسين موفقين ممن ألهبتهم العزيمة والتطلُّع وشغفوا بمحبة العلم والمعرفة ولو لم يكونوا على مثل الرسوخ والتضلُّع

في اللّغة الأجنبية الذي عند صاحبنا الأول، نراهم دائماً على اتصال بما جدّ ويجدّ في حقل الخبرات الإنسانية والأعمال الفَنّيّة المبتكرة، ينشؤون وينتجون باستمرار ودون انقطاع، ما يُثرون به تراثهم القومي وحياة الفكر في بلادهم، فهؤلاء هم الذين تعوّل عليهم الأمم والشعوب في تطوير عقليتها وإخصاب ثقافتها، لا أولئك الطفيليين الكسالى الذين لا غناء فيهم ولا فائدة تُرجى منهم.

ونعطي مثالاً من مغربنا العربي الذي يعتمد الفرنسية في الدراسات العامة، فإن عشرات، بل مئات من مثقّفيه قد انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة العلمية، أو على الأَقلّ لا يعرف لهم أثر في هذه الحياة، وقد مرّ على تخرج الكثير منهم عشرات السنين، وذلك رغم إتقانهم اللّغة الفرنسية إتقان أبنائها لها، فالطبيب منهم يعالج المرضى إن لم يشغل وظيفة حكومية تكون أكثر دخلاً من مهنته تاركاً ميدان المعالجة للطبيب الأجنبي، وكذلك المحامي والمهندس وغيرهما، لا يزيدان على مزاولة مهنتهما بصفة عادية، ولقد عجز كثير منهم حتى عن إعداد أنفسهم للتدريس بالعربيّة في المدارس الثانوية لإنجاز مشروع تعريب التعليم، فإين ما يزعمه هذا الذي يقول إن الدراسة بلغة أجنبية تفتح آفاق التعليم والاطلاع؟

ولنقارن حال هؤلاء بحال طالب مجتهد أكمل دراسته باللّغة العربيّة في بلاده، ثم ذهب في بعثة دراسية إلى فرنسا فأحرز الدكتوراه في الفلسفة والأدب بتفوُّق، ولما رجع إلى بلاده قام بحركة فكرية وأدبيّة عظيمة، درس وبحث، ونقد، وألَّف في أكثر فنون الأدب كتباً قيمة نقل الكثير منها إلى اللّغات الأجنبية الأوروبية وغيرها، وما لبث أن صار عميد الأدب العربي ورئيس المجمع اللّغوي، والغريب في الأمر أنه ضرير، فبكم يُقاس الدكتور

طه حسين من الدارسين باللّغة الفرنسية الذين ليس لهم هِمَّته وعزيمته، وإن كانوا في إتقان الفرنسية والعلم بها ربما يفوقونه؟

والعبقري الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد، لم يكن حتى من الذين درسوا دراسة جامعية باللّغة العربيّة ومع ذلك فإنه كان آية في الاطلاع والتفتح على أحدث الأنظار العلمية والفلسفية وتغذية الأدب العربي والثّقافة الإسلامية بأحسن ما ظهر في عالم الفكر والمعرفة حتى أصبح قمة من قمم العلم والأدب. وكانت اللّغة الأجنبية التي يتقنها هي الإنجليزية وإنما تعلَّمها في السنوات الأولى من الدراسة الثانوية.

هذان المثالان وإن يكونا من عالم الأدب، فإنهما يجران ذيلهما على عالم العلوم. وقصدت الإتيان بهما الإلماع إلى جناية أخرى مما تجنيه الدراسة باللّغات الأجنبية على الحياة الأدبيّة في هذا الجناح من الوطن العربي.

إن بلاد المغرب كثيراً ما تشكو من ركود الحركة الفكرية وجمود القرائح وضعف الإنتاج العربي وقِلّة القرّاء ودور النشر أو انعدامها بالمرّة وتأخر فَنّ الطباعة العربيّة، وإن كثيراً من الباحثين يعللون ذلك بمختلف الأسباب، ولكنهم قلّما ينتبهون إلى السبب الرئيسي في ذلك وهو انتشار الثّقافة الأجنبية وغزو الفكر الفرنسي لشباب المغرب واختطاف الصحيفة والمجلّة والكتاب الفرنسي للقارئ العربي، وحلول المكتبات الفرنسية محل المكتبات العربيّة وعودة فائدة ذلك كلّه إلى الكاتب والناشر والكتبي الفرنسيين. ولئن دام هذا ولم يعجل بتلافيه فسوف يصبح المغرب العربي كالسينغال يفكِّر باللّغة الفرنسية وينتج بها، ولأمرٍ ما نجد المتعلِّمين بها أكثر المتحمسين لازدواجية لغة التعليم والاحتفاظ بتلقين الفرنسية حتى

في التعليم الابتدائي كما كان عليه الحال أيام السيطرة الاستعمارية، لأنهم على ما يظهر يريدون أن يجعلوها قنطرة بينهم وبين الشعب يتصلون به عن طريقها ويتفاهمون معه بواسطتها.

فهذا ما فعله التعليم باللّغة الأجنبية في وطن عربي كبير في الميدان الاجتماعي والقومي، ولن يكون أثره في المجال العلمي والتقني بأحسن من ذلك أثراً ولا أَقلّ ضرراً.

ويورد أناس مشكلة للمصطلح العلمي والاختلاف فيه على قِلّة ما وضع منه، ويجعلون ذلك عقبة في طريق تدريس العلوم باللّغة العربيّة، وما كان المصطلح ولن يكون عقبة في هذا السبيل، وأمره أهون من ذلك، فأكثر المصطلحات العلمية عالمية مشاعة بين الأمم على اختلاف لغاتها، ونحن العرب لابد أن نأخذ الكثير منها كما هو من غير ترجمة، ولسنا في ذلك بدعاً من الناس، بل إن أجدادنا فعلوا ذلك فقالوا الدوسانطريا والماليخوليا والديابيطس وغيرها من مئات الألفاظ التي لم يغيروها وأبقوها على حالها، فضلاً عن التي عرَّبوها وأجروها على الموازين العربيّة فليسعنا ما وسعهم، لاسيّما والمصطلح ما هو إلّا لفظ يحتاج إلى الشرح ولو كان عربياً، فكيف يقف حجراً في طريق تدريس العلوم بالعربيّة؟!.

ولقد وضع الأفراد والجماعات وأصحاب المعاجم العلمية آلاف المصطلحات التي تسهل مهمة مدرس العلوم فما عليه إلّا أن يجدّ في تحصيلها، وعلى جامعاتنا أن تزوِّد مكتباتها بهذه المعاجم ولوائح المصطلحات وتجعلها بمتناول يد الأساتذة والمدرسين والطلبة والباحثين، ولا تأخذ أحداً من هؤلاء العزة بالإثم فيترفع عن الاستفادة من جهود العلماء الذين سبقوه في

هذا الصدد ويستغني عن التزوُّد بما قدَّموه من ثمار يانعة طالما تعبوا في قطفها، فإن العلماء يجب أن يكون خلقهم الإنصاف والاعتراف بالجميل لذويه وما نال من نال إلّا بالتنظيم والاحترام لأهل الفضل وما حُرِمَ مَنْ حُرِمَ إلّا بترك ذلك.

وأحسب أن ما يهول به بعضهم من اختلاف المصطلحات بين البلاد العربيّة وتعدُّد الأسماء لمسمَّى واحد إنما هو من سوء التقدير وحب الشغب وإلّا فأية لغة ليس فيها ذلك؟ وإنك لتجد المؤلِّف توضع له اللوائح الخاصّة لتفسير مصطلحاته، ومع ذلك ما رأينا أهل لغة يقيمون مثل هذه الضجة التي يقيمها كُتَّاب العربيّة لتوحيد المصطلحات حتى سارت نهجاً متبعاً، ما وقع الكلام على تعريب العلوم إلّا وأثارها هذا الكاتب أو ذاك ولو من سبيل التقليد، وهي كانت أحرى أن تُعدّ اجتهادات مشكورة تعين على التعريب ولا تصد عنه، ولاسيّما لمن يشكون من قِلّة المصطلحات، كما أنها في نفسها- أعني هذه المصطلحات المتعدِّدة- قليلة وليست من الكثرة بالقدر الذي يدعيه المنكرون.

على أن مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة الذي أصبح يمثِّل البلاد العربيّة جمعاء، قد قام بتصفية الكثير من هذا الخلط وخطا خطوات مهمة في توحيد المصطلحات المتعدِّدة وانتقاء الأصلح الواضح والدقيق الدلالة منها، وذلك بمشاركة المجمعين السوري والعراقي ونخبة من أهل العلم والمعرفة من بقية الأقطار العربيّة الأخرى. فمن لم يطلع على منجزاته في ذلك فليطلبها من أمانته العامة ولا يبقى حائراً يُردِّد كلاماً قديماً لم يكن على صواب لما قِيل لأول مرّة فكيف به الآن وقد صار أسطوانة مملولة؟ والظن بل الواجب أن يستمر الوضع للمصطلحات من أهل العلم، وأن

تتمدَّد المصطلحات لذلك، وليكن مجمع اللّغة والسليقة العربيّة أو الحس اللّغوي المشترك بين أبناء العروبة في المشرق والمغرب هما اللذان يختاران ويقران ما يصلح. (أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث).

هذا وفي نفسي شيء أخاف إذا أبديته أن أُرمى بالمبالغة وربما بسوء الظن. ولكن لابد أن أشير إليه ولو على سبيل الاحتمال البعيد، وهو أني أرى وراء هذه الضجة التي تحتدم في هذه الأيام حول صلاحية اللّغة العربيّة لتدريس العلوم وعدمها، أيادي تحركها وتنفخ في نارها وهي أيد ليست بنظيفة ولا تريد الخير للعرب ولا للّغتهم وإنما أصحابها يرون ويسمعون حيرة بعض الأقطار الإفريقية والآسيوية، وخاصّة الإسلامية منها التي استقلَّت أخيراً وملكت أمر نفسها، وهي ليس لها لغة تصلح للحياة العامة أو لها هذه اللّغة وتريد أن تكتبها بحرف ما من الحروف الأوفق لنطقها وهجائها، وكثير من هذه الأقطار تتطلَّع للّغة العربيّة والحرف العربي، فلصدها عن هذا التطلُّع ولتشكيكها في قيمة العربيّة وصلاحية حرفها للكتابة الصحيحة، يوعز المغرضون بإثارة هذا الموضوع في الصحف والمجلّات العربيّة بالذات، ويوحون بطريق غير مباشر إلى بعض أوليائهم- ومالي لا أقول بتواطؤ مع بعضهم- إلى الجهر بالحكم على العربيّة وحرقها بالعجز والقصور عن مسايرة ركب الحضارة العصرية وعدم الكفاية لما يتطلَّب المدّ الثوري الذي يكتسح البلاد العربيّة من تطوُّر في وسائل تحقيق البعث العربي الماديّة والمعنويّة ومنها أداة التعبير الملائمة للعصر.

إن أولئك الإخوان الأفارقة والآسيويين إذا سمعوا العرب أنفسهم يردِّدون هذا الكلام ويتهمون لغتهم أشنع الاتهام لابد أن يقر في أنفسهم ما يلقيه إليهم المستعمر الذي جلا عن أرضهم من الباب وعاد ليدخل إليها من النافذة، لاسيّما وهو لا يفتأ بمدّهم بالعون والخبرة المدخولة ويقدِّم إليهم

المشروعات الجاهزة في هذا المطلب وغيره من مطالب الحياة، ولذلك فإن المتأني والمتلبث منهم هو الذي يرجئ مسألة اتخاذ العربيّة لغة رسمية له أو اصطناع الحرف العربي للّغته، وغيره يعزم ولا ينتظر، ومن ذلك ما جرى أخيراً بين بعض دول إفريقيا من عقد مؤتمر تحت رعاية منظمة اليونسكو للنظر في وضع أبجدية لكتابة لغاتها وتوحيدها. وهكذا نُضيِّع على أنفسنا وعلى أصدقائنا فرصاً ثمينة لا تعوض، بجدالنا وتنازعنا، ولو كنا أبناء عصرنا حقيقة، لاغتنمناها لبسط نفوذنا الروحي في أقطار العالم، ولكنا أحرباء أن نرفع رأسنا فخراً بما لنا من ثقافة عالمية ولغة حيّة تعمل أكثر لغات العصر تقدُّماً لكسب مثل ما لها من مقام وحرمة وتأثير في حياة عدد من الشعوب المنتشرة في أطراف المعمورة.

ولا يُقال إن هذا الكلام عاطفي في مجال علمي، فإن العلم كلّ العلم أن ننهض بلغتنا وننشرها على أوسع مدى كما تفعل الأمم الراقية. ولو لم يكن في تبني لغتنا وحرفنا من طرف أمم أخرى غير عربيّة إلّا التثبيت وزيادة الإيمان للمؤمنين وإقناع الشاكين المتردِّدين لكان ذلك كافياً لحرصنا عليها وعملنا على رفع لوائها في كلّ مكان، ولقمنا بتعاون، مع هذه الأقطار الراغبة في تعلُّم العربيّة بوضع برامج سهلة وميسرة لتلقينها لأبنائها ونشر مجموعة من الكتب المفيدة التي تظهرهم على كنوز الثّقافة العربيّة وتجعلهم يتذوقون الأدب العربي قديمه وحديثه ويتصلون شيئاً فشيئاً بالفكر العربي والتراث الإسلامي حتى يندمجوا ولو بعد حين في الشعب العربي ويصيروا من أخصّ أصدقائه وأقرب الناس إليه.

إن هذا «تكتيك» وليس عاطفة، ولكنه يتطلَّب من العمل قدر ما عندنا من القول «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ».

الطبيب الدكتور عبدالسلام العجيلي

حين يتحدَّث المثقَّفون، وذوو الثّقافة العلمية منهم بصورة خاصّة، حول لغة العلوم ينقسمون في العادة إلى فئتين متميِّزتين يكاد يكون رأي أفراد كلّ منهما معروفاً مُقدَّماً. فالذين تلقّوا ثقافتهم العامة والعلمية باللّغة العربيّة يرون وجوب تدريس العلوم بلغة العرب، ويسوقون لذلك المبرِّرات والحجج في سعة اللّغة العربيّة وقدرتها على التعبير وفي الاعتبارات القومية التي تدعو إلى اتخاذ اللّغة الوطنيّة لغة البيان العلمي مثلما هي لغة البيان الأدبي. أما الذين تلقّوا ثقافتهم العامة والعلمية، أو العلمية على الأَقلّ، بلغة أجنبية فينحازون عادةً إلى الجانب الآخر، ويسوقون الأمثلة على عجز اللّغة العربيّة عن مسايرة التقدُّم العلمي وعن استيعاب المصطلحات العلمية، كما يسهبون في التحدُّث عن إنسانية العلم ووجوب تنزيهه عن الشوفينية والعصبية القومية، داعين بذلك إلى تجاهل الاعتبارات التي تمليها العنعنات الضيقة وإلى دراسة العلوم بلغة أخرى قد تكون الروسية أو الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية... أية لغة شرط أن لا تكون اللّغة العربيّة.

وتبعاً لهذه العادة المألوفة في الانقسام يكون متوقعاً في رأيي وجوب تدريس العلوم في جامعات بلادنا باللّغة العربيّة، مادمت طبيباً تلقيت ثقافتي العلمية باللّغة العربيّة. ولن تزيد الحجج التي أقدِّمها لهذا الرأي في العدد أو القوة عما أورده الأستاذ الدكتور بشير العظمة في مقاله المنشور في العدد السابع والأربعين من المعرفة. كما أن التبريرات التي أقدِّمها لتعليل إيمان بعض العلميين بقصور اللّغة العربيّة عن أن تكون لغة العلوم الحديثة لا تتعدَّى بكثير ما أورده أستاذنا الدكتور شوكت

موفق الشطي في العدد الخمسين من هذه المجلّة من كون هذا الإيمان مبنياً، في أحسن حالاته، على خصومة لا شعورية عند هؤلاء العلميين ترتد إلى خوف من التجربة أو جهل باللّغة أو إلى أنانية مفرطة. ولكن الذي أُريد أن أُشير إليه هو إغفالنا أن نسوق في عداد الحجج التي نقدِّمها لتدريس العلوم باللّغة العربيّة العامل النفسي الأصيل الذي مصدره حبنا لوطننا ولغتنا وتمسكنا بهما. والواقع أن إضرابنا عن ذكر هذا العامل ليس غفلة، بل هو تغافل أو تهرُّب من إيراده خوفاً من أن نتهم بالشوفينية المقيتة وبالتعصُّب الضيق وبإقحام الدوافع العاطفية في ميدان لا سيادة فيه إلّا للأمور الفكرية والواقعية المحضة.

ولكن هذا العامل موجود وراسخ في أعماق نفوسنا مهما حاولنا إغفال ذكره أو التمويه عليه بتفسيره تفسيراً سياسياً أو قومياً، ناظرين مثلاً إلى قيمة اللّغة كأداة لربط الشعوب العربيّة المتباعدة في أصقاعها والعديدة في ملايين أفرادها. فحتى لو أن العرب كانوا أمة كألبانيا لا يزيد عدد أبنائها على مليون وربع المليون ولا تزيد مساحة أرضها على ثلاثين ألف كيلومتر مربع لوجب أن تُدرَّس العلوم لأبنائها باللّغة العربيّة، كما تُدرَّس بالألبانية في جامعة تيرانا. هذا التعلُّق العاطفي باللّغة الأم في مجموعة بشرية هو دلالة من دلالات ثقة هذه المجموعة بنفسها كما هو نقطة ارتكاز لابد منها لكي تنتج هذه المجموعة إنتاجاً حضارياً ذا قيمة أصيلة. ولا محل للخجل من الإفصاح عن الشعور بهذا التعلُّق، فكما أن الرجل لا يُلام على حب قومه فهو لا يُلام على حبه للّغة قومه. والذين لا يؤمنون بالحقائق إلّا بدلالة سلوك الآخرين بموجبها، يجب أن يزوروا دولاً أوروبية كثيرة، لا يزيد عدد المتكلِّمين بلغات بعضها على الملايين

القليلة، ليروا كيف تُدرَّس كلّ العلوم في جامعاتها بلغاتها الوطنيّة، وليروا كيف أن أبناءنا الذين أمّوا تلك البلاد- لأن جامعاتنا ضاقت بهم- يدرسون الطب والهندسة بالبلغارية أو الكرواتية أو غيرها من لغات أوروبا الوسطى، دون أن يتهمهم أحد بأنهم يستقون العلم بأوعية لغات غير علمية. وفي تشيكوسلوفاكيا، البلد الموحَّد، جامعات تُدرِّس علومها بلغتين مختلفتين هما التشيكية والسلوفينية، ولم يطعن أحد على ذلك بقيمة العلم التشيكوسلوفاكي أو التكنيك التشيكوسلوفاكي أو بالتعصب الذميم الذي عليه الشعوب التي تؤلِّف سكان ذلك البلد الموحَّد. كما أن أحداً لم يدع إلى نبذ هاتين اللّغتين الضيقتين وتدريس العلوم في جامعة براغ باللّغة الفرنسية أمس والإنجليزية اليوم والروسية غداً والصينية بعد غد...

إن كلّ متعلِّق منا بلغته العربيّة، ومن ثَمّ كلّ محب لوطنه وأمته، لابد من أن يصدم بالدعوة التي قدَّمتها لجنة من الخبراء الأجانب إلى تعليم الطب في جامعة حلب العتيدة باللّغة الإنجليزية. والاستجابة إلى هذه الدعوة هي تمييع لكثير من مقومات وجودنا في الميدان القومي والاجتماعي، كما أنه في ميدان التطبيق نكسة لجهود مستمرّة وناجحة قامت بها سورية العربيّة في جامعة دمشق، وفي كلية الطب فيها بصورة خاصّة. وأكاد وأنا أكتب هذه الكلمات ألمح بسمات التشكُّك في ما أصفه من نجاح لجهود كلية طب دمشق تعلو شفاه كثير من العلميين الذين تلقّوا دراستهم باللّغات الأجنبية في جامعات عربيّة وأجنبية. والواقع أن هذا التشكُّك دائم التردُّد في الأحاديث التي تدور حول القيمة العلمية لدراسة الطب بلغة عربيّة. وهو ينصب دوماً على خريجي جامعة دمشق من أبناء كلّ

البلاد العربيّة، على الرغم مما قدَّمه هؤلاء الخريجون من خدمات في بلاد المشرق العربي، وعلى الرغم من أن التفاضل في القيمة العلمية لهذه الخدمات كان في غالب الأحيان تابعاً لشخصية الطبيب وميوله في متابعة الدراسة والاطلاع أكثر منه لقيمة الجامعة التي تخرَّج فيها. وأسمح لنفسي أن أكون قليل التمسُّك باعتبارات اللياقة فأتساءل عن العلماء الأعلام، بالمقياس العالمي لا بالمقياس المحلّي، الذين خرجتهم الجامعات، من عربيّة وأجنبيّة، التي تُدرِّس الطب باللّغة الفرنسية أو الإنجليزية في القاهرة وبغداد وبيروت. لقد عجزت اللّغات الأجنبية في هذه الجامعات ومدرسوها الأعاجم من مقيمين وزوار أن تخلق وأن يخلقوا من طلابها البحّاث الذين نفتقدهم في جامعة دمشق التي تُعلِّم بأساتذة عرب ولغة عربيّة. وفي كلّ البلاد العربيّة لايزال الذين يكتشفون الأدواء المحلّية هم العلماء الأجانب والذين يخترعون الأدوية الشافية لهذه الأدواء المحلّية هم العلماء الأجانب. ومثلما يرتبط اكتشاف البلهارزيا المستوطنة للقُطر المصري بأسماء بلهارز ومانسون وزملائهما قبل إنشاء جامعة القاهرة، يرتبط اكتشاف أدوية هذا الداء الوبيل بأسماء بحّاث ألمان وفرنسيين بعد إنشاء هذه الجامعة، ويرتبط في هذا العام اكتشاف دوائها الشافي بأسماء بحّاث أوروبيين يقيمون في بال بسويسرا[1]. بل إن الجامعات الأوروبية والأميركية المشهورة التي تُدرِّس طلابها بلغات التقدُّم العلمي، عجزت عن أن تخلق من أبنائنا، الذين يُبدون أثناء دراستهم فيها نبوغاً مشهوداً،

---

(١) في مجال البلهارزيا بصورة خاصّة تكاد تكون المساهمة ذات الشأن التي يذكرها المؤلِّفون الغربيون هي الأبحاث التي كُتِبَتْ عن عرض بيلة الدم النهائية كأول الأعراض المميِّزة لهذا الداء.. وهذه الأبحاث كتبها باللّغة العربيّة أطباء العرب الأولون في القرون الوسطى، ومن هذه اللّغة تُرجمت إلى اللّغات الأوروبية.

العلماء الذين نريدهم ونحتاج إليهم حين يعودون إلى ديارهم ويعيشون في أجواء بلادهم.

ذلك أن اللّغة لم تكن أبداً سبب التقصير العلمي. وجدير بنا أن نبحث عن هذا السبب في عوامل أخرى يؤدي اجتماعها أو فقدها إلى خلق بيئة خاصّة، أو إلى فقد هذه البيئة التي في أحضانها تتكشف المواهب ويتحقّق الإبداع، هذه البيئة الخاصّة مفقودة الآن في أنحاء الوطن العربي أو أنها ضئيلة أثر الوجود. ولَعلّ من أسباب فقدها ضعف ثقتنا بنفسنا الذي يتظاهر باتخاذنا لغة غيرنا لغة علمية لنا، بالرغم من كلّ الإمكانات التي تتمتع بها لغتنا، والتي طالما أسهب في تعدادها المدافعون عن قدرة اللّغة العربيّة في هذا المجال. وإذا كنت لم أعد إلى تعداد هذه الإمكانات فلأني أردت أن أقصر حديثي على العامل النفسي الذي يتحاشى ذكره المتحدّثون في هذا المجال خوفاً من أن يتهموا بالتعصب وضيق الأفق، فأنا أؤكد على أن استمرارنا على استبعاد لغتنا عن ميدان العلم هو استمرار في إبقائنا في وضعنا العلمي الحاضر، وضع الإمّعة، لأن التبعية النفسية تسبق دوماً التبعية في التعامل وفي السلوك الحياتي، والاعتراف دون خجل بتعلُّقنا بلغتنا وبإيثارنا إياها على لغات الأجانب هو اعتراف بواقع، أو بواجب، لا يشين، وإخراج هذا الإيثار وهذا التعلُّق إلى ميدان التطبيق باتخاذنا لغتنا لغةً علمية هو السلوك الصحيح الذي يجب أن ننتهجه، والذي لا مَعْدىً لنا عنه لنتثقَّف علمياً، ثم لتتحول ثقافتنا من مرحلة الاكتساب والتلقّي إلى مرحلة العطاء الصحيح، القوي والأصيل.

الدكتور مدني الخيمي

طلب إليّ رئيس تحرير «المعرفة» أن أكتب في موضوع لغة العلوم وقد تردَّدت إيثاراً لراحة البال وبعداً عن الجدال في موضوع تعدَّد كتابه، وتشعبت به وجهات نظرهم. ولكن آراء الزملاء الذين سبقوني إلى الكتابة في (المعرفة) حفزتني إلى مساندتهم برأي قد يختلف في تفاصيله ولكنه في جوهره صنو لما وفقوا إليه في تقرير واقعنا العلمي.

لقد حاول أكثر من كتب في موضوع لغة العلوم أن يكون موضوعياً منصفاً، دون إفراط في التعصُّب لرأيه، ولكن قِلّة من هؤلاء الكُتَّاب قد بالغت في آرائها، حتى فاحت من مقالاتها رائحة الشخصية والانفعالية دون مُبرِّر. فأبطال الدفاع عن الأجنبية، كانوا في غالبيتهم، من الصنف الذي يغضب روح سيبويه، في قبرها، إذا نطق بلغة آبائه وأجداده، كما أن بعض المدافعين عن العربيّة، كانوا من الصنف المعاكس تماماً، يصعب عليهم تحريك ألسنتهم بغير الفصحى. هذه النماذج من المدافعين والمهاجمين هي مرآة صادقة، تعكس نأمات وجدانهم الشعورية أو اللاشعورية، وتلبس الدفاع عن النفس، ثوب الدفاع عن اللّغة، أو تلبس الدفاع عن العجز، ثوب الدفاع عن تقدُّم العلم.

بعضهم حكم على العربيّة بالموت، وأخرجها من كشف اللّغات الصالحة لتدريس العلوم، وأحب أن يقصرها على وصف الطبيعة، ومناجاة الحبيب، أو التقرُّب إلى الله بالصلاة والدعاء. وبعضهم جعل منها الأداة الطيِّعة الرشيقة، التي تصلح للصيغ الكيماوية، كما تصلح لأحدث المكتشفات: في الميكانيكا، والذرة، والصواريخ.

اللّغة العربيّة لغة العلوم

لا شك أن اللّغة العربيّة صالحة كلّ الصلاح لتدريس العلوم، على مختلف أنواعها، وما سمعنا عن أمة صغيرة أو كبيرة، تدرس العلوم بغير لغتها.

فالعربيّة أوسع انتشاراً من الإيطالية، والتركية، والبلغارية، وعشرات اللّغات الأخرى، التي تُدرَّس بها العلوم، ولا أظن أحداً يجحد إمكانيات العربيّة، لغة السهولة فـي الاشتقاق، والطوعية فـي إيراد المعاني بدقة وإيجاز، ولكن هذه اللّغة التي نقلت إليها كلّ العلوم المعروفة، إبان ازدهار الحضارة الإسلامية، قد هجعت بعد ذلك هذه القرون العديدة، ونهضت الآن لتنهب الفراسخ، وتحرق المراحل، ولتأخذ مكانها فـي صف اللّغات، التي راكمت تعابيرها العلمية، خطوة إثر خطوة، وسنة بعد أخرى.

وصُدِمَ جيل النهضة، بهذا التخلُّف الكبير، وواجهوا لغة جافة الجلد، يابسة المفاصل، فعزفوا عنها يائسين، ولاذوا بالأجنبية يدرسون ويدرسون بها، إلّا قِلّة منهم، ننحني اليوم إجلالاً لجهدها الجبار، تصدت للعقبات تذللها الواحدة بعد الأخرى، وقد وقع هؤلاء العلماء فـي أخطاء طفيفة، لا مندوحة للرواد عن الوقوع بها، فقام الآخرون الذين فقدوا قدرة المجاراة إما لخورٍ فـي العزيمة، أو لجهلٍ مطبق بلغة أجدادهم، يشنعون عليهم، ويصفونهم بالعقم ويرمون العربيّة بكلّ نقيصة، ويُقرِّرون، بصورة بعيدة عن الموضوعية، استحالة تدريس العلوم باللّغة العربيّة.

أخطاء الروَّاد

كان روَّاد العربيّة الأوائل من المتزمِّتين، يُبرِّر لهم هذا التزمُّت، وجود الأجنبي المستعمر، وخوفهم على العربيّة من أن تكتسحها لغة هذا المحتلّ القوي، ولكن هذا التزمُّت تطوَّر، مع الزمن، إلى ظاهرة من ظواهر الضعف، شأن المرض النفسي، الذي يصبح مع الزمن عِلَّة وجود صاحبه، فإذا حاول طبيب أن يشفيه، انقلب حامله، فــي دفاع مستميت عن عِلَّة الوجود وهدف الحياة.

وروَّادنا قد أمعنوا فــي تزمتهم، فأصبحت اللّغة والتقعر فيها الهدف، وضاع المقصود منها، وأضحت عوضاً عن أن تكون أداة لدراسة العلوم، مُسَخَّرة لهذه العلوم فــي دراستها، وقد روى لي أن أحد المتحمسين من أساتذتنا، الذين لا تُنكر خدماتهم الجلى وأياديهم البيضاء على لغة الضاد، كان، رحمه الله، إذا قِيل له: فلان الحقوقي أو الأستاذ فــي مدرسة الآداب العليا، يومذاك، قال كذا: فــي موضوع لُغوي يضحك من أعماق قلبه، ويجيب فــي تهكُّم بريء: ما شأن اللّغة بمدرسة الآداب - إشارة إلى أن اللّغة ومعرفتها، قد اقتصرت على كلية الطب، من دون كليات الجامعة الأخرى.

وقد أدى هذا الحماس، فــي أحوال نادرة، إلى التقصير فــي خدمة العلم، الذي يفترض، أن أستاذ مادته، فــي مُقدِّمة خبرائه على الأَقلّ، وعليه أن يستخدم أكثر وقته فــي تتبع ما استجد فــي فروع العلم الذي يدرسه، فإذا صرف القسم الأعظم منه - وما أَقلّه فــي تتبع موسوعات اللّغة والغوص فــي بطونها بحثاً عن كلمة طريفة لم يُسبق إليها ضاع على

طالبه الغاية، التي دخل الكلية من أجلها.

وكانت الكلمة الناشئة تُطلق على شيء فـي السنة الأولى، فإذا غاص زميل آخر فـي مكان أعمق، وعثر على لؤلؤة أنفس، ألبسها نفس المعنى، وحاول أن يقتل الكلمة الأولى، حتى ضاع الطلاب فـي خِضَمّ الغواصين!!

ونحن لانزال فـي كلية الطب مثلاً نُطلق الوزمة والخزب على نفس المعنى، والسلعة والجدرة على معنى آخر، ومترادفات أخرى خرجت من مصانع دمشق والقاهرة وتونس والرباط، أو هي على وشك الخروج دون رقابة مجمعية، أو اتفاق جماعي.

جهد مجامع اللّغة

وقد درجت مجامع اللّغة على نفس القاعدة، إلا فـي ظروف نادرة، فأعضاؤها فـي كثرتهم لغويون، لا ينكر علو كعبهم فـي ميدان اللّغة، ولكنهم مقتنعون، فـي قرارة نفوسهم، أن من حق اللّغة أن تصنع كلماتها كلّها بنفسها، دون حاجة إلى تجريب أو استعارة من لغات الدنيا الأخرى، وهذه هي العقبة التي خلقها هؤلاء العلماء، واصطدموا بها بعد ذلك، حتى كادت تقضي على حماسهم فـي التحويل العلمي، كما أعطت للمتشككين فـي قدرة لغتنا حجةً وسلاحاً، يشهرونهما فـي وجه المخلصين من بُناة التعمير العلمي العربي.

التعريب هو العلاج

والطريق الأوحد لشق هذه الطريق الوعرة المليئة بالصخور والأشواك هو فتح باب التعريب على مصراعيه، وتضييق باب الترجمة على قدر الإمكان، فإن المفردات التي تحتويها العلوم الدقيقة فــي: الميكانيكا والكهرباء والكيمياء والزراعة والطب وإلخ.... تزيد على خمسين ألف كلمة، إذا أهملنا الكلمات المُركَّبة، وأن لغات العالم بأجمعها من اليابانية إلى الروسية إلى كلّ اللّغات التي لا تمت إلى اليونانية أو اللاتينية بصلة النسب أو القرابة، قد أدخلت هذه الكلمات فــي لغتها دون تعديل، أو بعد تعديل، يناسب نطق هذه اللّغات، وقد لاحظنا فــي السنين الأخيرة تقارباً بين اللّغات الأوروبية نفسها، ومحاولة لتوحيد الكلمات التي اكتسبت قداسة تاريخية. فقد بدأ الفرنسيون يستعملون كلمة الارتعاش الإنجليزية Therill، فــي مكان كلمتهم Fremisscment التي يعرفها الأطباء منذ قرن، وأدخلوا كلّ التعابير التخطيطية فــي أمراض القلب بصيغها الأصلية، كما فرنسوا كلمة الشدة Stress، بعد أن حاولوا ترجمتها بأشكال مختلفة.

طوعية التعريب

ونحن لا نقترح إدخال الكلمات الأجنبية، بصيغها الأصلية، بل نريد تعريبها بشكل ينسجم مع النغمة العربيّة، ودون أن نخترع لها كلمة يصرف الطالب فــي تعلُّمها نفس الجهد الذي يصرفه فــي تعلُّم الكلمة المُعرَّبة. ما الفائدة مثلاً، من تعريب كلمة: سنتمتر، وميليلتر، وهورمون وفيتامين، وما هو الضرر فــي أن نلفظها: هورمون أو هرمون أو

هارمون.. أو فتامين أو فيتامين، ولماذا لا نبقي على كلمة البنكرياس عوضاً عن المعثكلة؟ بل لماذا لا نُعرِّب الكلمة التي لا يمكن أن نترجمها بأي كلمة عربيّة تفيد معناها الأصلي، فكلمة: synthesc مثلاً يمكن أن تصبح سنتنزة وتصرَّف أيضاً: سنتز يسنتز، وستريس سترس، وقد نقول إنه يملك عقلاً مسنتزاً، أو هو مصاب بالستريس.

هذه أمثال قد لا أكون وُفِّقت بإيرادها، وأنا لا أصر على فكرة مُعيَّنة، ولكن المهم هو أن ننطح الصخر أو نشرب البحر.

تاريخ اللّغة الموحدة

كانت اللّغة العربيّة فــي عهد الازدهار الإسلامي لغة العلم، واستطاعت أن تكون الأداة الصالحة لكلّ ما تُرْجِمَ وعُرِّبَ عن اليونان والهند وفارس، ثم لعلوم جديدة وضعها العرب، وانتقلت بعد ذلك، عبر الأندلس، إلى أوروبا القرون الوسطى لتُترجَم من جديد إلى اللاتينية – لغة الكنيسة والعلم وقامت اللاتينية بدورها، كلغةٍ مشتركة بين العلماء، فأستاذ جامعة بادوا الإيطالية كان يستطيع أن ينتقل إلى كوتنبرغ الألمانية، ويدخل إلى قاعة الدرس رأساً ليحاضر بلغة يفهمها الجميع، ويحدث نظير ذلك فــي أي مركز علمي آخر فــي طول أوروبا وعرضها.

ومع أن الكهنة والعلماء كانوا يُستنفرون من طبقات شعبية، إلّا أنهم شكَّلوا طبقة خاصّة كانت دائماً بعيدة عن الشعب، مما جعل محاربتها

فــي أذهان العامة، تعني التحرُّر والانطلاق.

ولَعلّ نسف العربيّة فــي الشرق، واللاتينية فــي الغرب، واحدة من المصائب الكبرى التي أصابت سير العلم، إذا نظرنا إلى هذه الحادثة التاريخية بمنظار الحاضر، ولم نتأثر بالظروف المحلّية التي أدت إلى زوالها، المهم أن عدداً لا يُستهان به من العلماء يأسف أشدّ الأسف لأن هذا السيل الجارف من الأبحاث العلمية الحاضرة لا يكتب بلغة واحدة.

القلق من تعدُّد لغات العلم

ومن هنا نشأ التفكير باختراع لغة جديدة لغة علمية أسهل من اللّغات الحاضرة، يمكن تعلُّمها فــي بضعة أشهر، كالانترلنغوا Interieingua مثلاً، التي يُكتَب بها ملخص لكلّ الموضوعات، فــي عدد من المجلّات العلمية الكبرى.

وتعبِّر هذه المحاولة عن القلق الذي يساور العلماء بأن الإنتاج العلمي بلغات مُتعدِّدة مضيعة للوقت والجهد، ودفناً لآلاف الآراء القيِّمة، التي لا تجد من يأخذ بيدها إلى النور، خصوصاً إذا كانت مكتوبة، بلغة صغيرة لا يقرؤها إلّا أهلها، وليس هذا مقصوراً على العلوم، بل يتجاوزه إلى الفلسفة والأدب، فإن آلافاً من الكتب لا تدخل العالمية من بابها الواسع إلّا إذا تُرْجِمَتْ إلى لغة يفهمها مئات الملايين.

كَمْ من مُفكِّر نابه، أو فيلسوف نابغ، غمط حقه وأُهملت أفكاره، لأنه

لم يكتب إلّا بلغة مغمورة، ولم يُترجَم له، وذهب منسياً أو لم يكتشف إلّا بعد قرون، ومن الأمثلة على ذلك: معرفتنا المتأخرة بأن نصف أفكار سبينوزا على الأَقلّ، مسروقة من ابن رشد الأندلسي، أو أن الشيخ النفزاوي فــي كتابه الجنسي المبتذل قد سبق فرويد بمئات السنين، إلى ذكر الكبت والعقد النفسية.

كَمْ كان مجدياً لو أن الناس اتفقوا على لغةٍ واحدة لا تمت إلى قومية مُعيَّنة، حتى لا تُثير الحساسيات الإقليمية، والنعرات الوطنيّة، التي قضت على العربيّة واللاتينية، وجعلت العالم يصرف المليارات من أطنان الورق، وألتار الحبر فــي ترجمة وتلخيص، وسرقات تحت شعار التصرف.

لقد ظَنّ الناس فــي أعقاب الحرب العالمية الأولى أن الإنجليزية ستصبح لغة الطب العالمية، لأن أكثر من نصف كليات الطب فــي العالم، آنذاك، كانت تدرس بها، ولكن هذا الظَنّ قد زالت مُبرِّراته الآن، لأن هذه اللّغة لا يستعملها الآن، أكثر من سبعمئة مليون من الثلاثة آلاف، التي تُشكِّل سكان العالم.

فــي انتظار اللّغة الموحدة

وفــي انتظار انتشار هذه اللّغة الموحدة التي قد تتبناها هيئة الأمم فتحلّ بها أزمة العالم الحاضرة وقد تنجح فــي ذلك، أكثر مما نجحت

فــي حلّ أزمات العالم السياسيّة.

ومع أنه من المستبعد أن تنتشر هذه اللّغة المثالية، فــي وضع العالم الحاضر، إلّا أنها ستبقى حلماً يداعب خاطر العلماء حتى يتحقَّق.

وفــي انتظار ذلك، يجدر بكلّ أمة أن تدرس العلوم بلغتها، واللّغة العربيّة لغة المئة مليون، لا يعجزها هذا إذا خلصت النوايا، وتوسَّعت الآفاق وأُهملت حماسة المدافعين عن اللّغة الأجنبية، وجلّهم ممن يدافع عن جهله للّغته، التي كان عليه أن يتعلَّمها، فإن من الحقارة أن يسمح لعربي أن يدرس فــي جامعة عربيّة، فــي أي مكان كانت، دون معرفة عميقة بلغته حتى ولو أتى بالمعجزة فــي فَنّه واختصاصه.

الحاجة إلى لغة أجنبية

غير أن الطالب الذي سيدرس العلم بلغته العربيّة بحاجة ماسة إلى لغة كبيرة إلى جانب لغته تعينه على التتبع والحركة، ومهما ذكر فــي التقليل من شأن ذلك، ومهما ورد من مُبرِّرات للحفاظ على الوضع القائم بالنسبة لجهل الطلاب المطبق باللّغة الأجنبية، مردود على أصحابه، فإن لغتنا فــي وضعها الحاضر لاتزال فــي مخبر النحت والتشكيل، وجهل الطالب بلغة مستقرة يرمي تفكيره بالفوضى وأحكامه بالتردُّد، ويعيق تكامله حتى ولو كان طبيباً فــي قرية نائية، لن يخاطب أحداً بهذه اللّغة، فإن ما نريده من اللّغة الأجنبية هو أن نُحسن قراءتها

دون جهد، وأن تُستخدم فـي المطالعة السريعة، ولا يهم بعد ذلك إذا أُستعملت أو لم تُستعمل فـي المناسبات الاجتماعية، فإن الحوماني، الذي ترجم شكسبير إلى العربيّة ترجمةً نادرة الدقة، لم يكن يُجيد الإنجليزية نطقاً، وما كان بإمكانه أن يستخدمها فـي صالون استقبال أو مناسبة اجتماعية.

سبيل إتقان اللّغة الأجنبية

لقد فشلت كلّ الجهود التي بذلتها كلية الطب فـي جامعة دمشق بتدريس اللّغة الأجنبية، ويحق لجامعة دمشق أن تؤخذ تجاربها بعين الاعتبار فهي الجامعة الرائدة التي أعطت اللّغة العلمية العربيّة تقاليدها.

وقد يُرَدّ هذا الفشل إلى أسباب عديدة ولكن السبب الراجح، هو عدم توفّر التصميم والجدية فـي تطبيق مقترحات اللجان المتعدِّدة التي شُكِّلت فـي مناسبات مختلفة، ومنها جعل اللّغة الأجنبية مادة مسقطة كأمثالها من العلوم الأخرى، وعدم اللجوء إلى تدريس أجزاء من بعض المواد بهذه اللّغة.

ويعود هذا الإهمال إلى الخوف، الموروث من عهد الانتداب، من أن تطغى هذه اللّغة على العربيّة، لغة التدريس الرسمية، ولا مبرِّر فـي الواقع لهذا الخوف فـي عهد الاستقلال والسيادة، لأن أية لغة أجنبية لا يمكن

أن تكتسح العربيّة، مهما عظم شأنها، وهذه تجربة ثبت نجاحها فـي عدد من البلدان التي سبقتنا أشواطاً فـي ميدان العلوم، والتي تدرس بلغتها القومية.

إن إتقان لغة أجنبية إلى جانب العربيّة، يمنحها قوة ويغذي الطالب بمصادر لا يمكن الحصول عليها فـي العربيّة، وينمي فيه روح الاستقلال فـي الدراسة والاعتماد على النفس فـي تكوين شخصيته العلمية ويبعده عن روح المدرسة الثانوية، التي لاتزال تعشش فـي تربيتنا الجامعية، دون أن تمتد لها يد قوية تجتث جذورها ومخلّفاتها، من عقول المدرسين والطلبة على السواء.

الخلاصة

وخلاصة القول إن تدريس العلوم باللّغة العربيّة أمر لا يناقش، فهو ضرورة قومية واجتماعية، وهو فـي عالمنا الحاضر صفة ملتزمة بجامعات الدنيا بأسرها، حتى التي لا تُعدّ إلّا بعض ملايين، غير أن هذه اللّغة العلمية يجب أن تعتمد على التعريب وصوغ الكلمات بلباس عربي دون التقيُّد بحرفية النطق، ودون اهتمام بالتشويه إذا اقتضت الضرورة ذلك.

كما أن هذا التعريب يجب أن يتم تحت إشراف الجامعة العربيّة وبالاتفاق مع مجامع اللّغة والعاملين فـي هذا الحقل جميعاً، وأن

يُصار إلى نشر ما اُتفق عليه بأوسع وسائل الإعلام، وأن يصدر بذلك قاموس يتجدَّد كلّ عامين، حتى تدخل هذه الصياغة المستحدثة إلى مؤلَّفات المدرسين فيألفها جيل الطلبة الصاعد.

كما أن على علمائنا أن يرضخوا لهذه التعابير مهما خالفوها فــي قرارة نفوسهم، فإن باب الاجتهاد يجب أن يُسدّ بعد الاتفاق، لأن فوضى الكلمات التقنية تفقد المؤمنين بلغتهم إيمانهم بها وحماسهم للكتابة بها.

كما أن على المتزمتين الكارهين للغة أجنبية تسدّ النقص فــي تعابيرنا أن يخفِّفوا من غلوائهم.

وليذكر المخططون والمعقدون للمستقبل أن حياة الإنسان قصيرة، وأن عليهم أن يمهِّدوا لحياة جيل جديد يجب أن يؤلّف جزءاً من ركب العالم، لا قوقعة على هامش الدنيا، تجتر ذاتها، وتنطوي فــي احتضار مستمر.

لن نفقد الأمل بمستقبل اللّغة الواحدة لعلوم الإنسان كلّها، لغة لا قومية لها ولا أصول مُعيَّنة تُردّ إليها، قد تكون كما قال شو لغة تُشبه الإنجليزية وتُكتب بحروف عربيّة دون تنقيط أو تكون شيئاً آخر لا يخطر لنا الآن على بال.

غير أنها ستكون أداة مُوحِّدة لإنسانية الإنسان، يفهمها علماء الأرض جميعاً ضرورة يشعر بها كلّ من حاول أن يقرأ العلم بعِدّة لغات،

وفــي انتظار هذه الولادة العسيرة، لابد من أن تسند العربيّة فــي دراستنا لغة كبيرة، أما أن نجعل من لغة أجنبية سبيلاً إلى دراستنا، فأمرٌ قد كانت له بعض المُبرِّرات قبل ربع قرن، ولكن القطار قد فاته الآن وفُقدت حيثيات هذه المُبرِّرات منذ زمن طويل.

تدريس العلوم بالعربيّة فرض قومي، وربما كان من أقوى العوامل فــي تحقيق الوحدة الفكرية بين أقطار الأمة العربيّة جميعها.

«المعرفة» - يونيو 1966

حارسُ الكنيسة

(قصّة تاريخية)

سمع حارس الكنيسة العظمى بمدينة جنوة فـي جوف الليل، حركة غير عادية داخل الكنيسة وكان وهو مستغرق فـي النوم قبل أن توقظه هذه الحركة، يحلم بقدَّاس كبير يُقام فـي الكنيسة، حضره القساوسة والرهبان، والكبير والصغير من سكان جنوة وخاصّة أهاليها وعامتهم.

ولما صحا من نومه وتأكَّد من الحركة التي سمعها، نهض ينظر ماذا فـي الكنيسة، وما هو مصدر تلك الحركة، فإذا به يجد فرساً جامحاً قد دخل الكنيسة وهو يشتد فـي رحابها جيئةً وذهوباً، فشده مما رأى، وعلم أنه نسي أن يغلق باب الكنيسة، فمال على نفسه باللوم، ولعن الفرس الذي سبَّب له هذه الورطة، وقطع عليه الحلم الجميل الذي كان ينعم به فـي نومه.

ثم سار إلى الفرس واحتال عليه حتى تمكَّن منه، فقاده إلى خارج الكنيسة بعيداً عن ساحتها، وألهب ظهره بالسياط، فجرى إلى حيث لم يعد يراه، ورجع هو إلى الكنيسة فأغلق بابها، ودلف إلى مرقده وهو يجر نفسه من التعب.

ولم يكد ضوء النهار ينتشر، وتدب الحياة فـي المدينة حتى أخذت أجراس الكنيسة تدق، معلنةً بإقامة حفلات دينية كبرى، وصار السكان يتقاطرون على الكنيسة فـي إيمان وخشوع، واكتست المدينة حُلّة زاهية من الفرح والابتهاج، وماج الناس بعضهم فـي بعض، يتناجون ويتباشرون، كما يكونون أيام الأعياد والمناسبات القومية السعيدة، ولئن كان فيهم من يتظاهر بالاستخفاف وعدم المبالاة، فيمر مسرعاً كأن الأمر لا يعنيه فـي شيء، فإن ذلك لا يُؤخذ دليلاً على ضعف الإيمان ورقة الدين، وإن كانت دلالته على الشك والارتياب واضحة لا خفاء بها.

وعلى كلٍّ، فقد كان الحادث مفاجأة سارة لسكان جنوة، فمنهم من اعتبره تكريماً لمدينتهم وعلامة رضى عن الجنويين المؤمنين لتميُّزهم باليقين الصادق والعقيدة الصحيحة، ومنهم من عده تأميناً لجنوة وحماية لها من جميع الطوارئ والمخاوف وهجمات الأعداء، أما رجال الدين فلم يتردَّدوا فـي أنه تزكية لهم وشهادة باستقامتهم، ثم هو تقديس لكنيستهم التي أصبحت منذ اليوم، تفوق غيرها من الكنائس لما حصل لها من الشرف العظيم.

وما كان صاحبنا الحارس لينبس ببنت شفة، وهو يرى ويسمع ما يجري وما يُقال، لأنه مُهدَّد على الأَقلّ بتهمة الإهمال وعدم القيام بواجبه كحارس للكنيسة العظمى، فكيف إذا نطق بالحقيقة وبيَّن للناس أنهم فـي ضلال يعمهون، إنها الهرطقة حينئذ وتهمة الإلحاد والكفر البواح.

ولو قُدِّرَ لأولئك الشاكين والمرتابين أن يتحدَّثوا إليه، وأمكنه أن يفضي إليهم بخبيئة نفسه لتغيَّر وجه القضيّة من أمرٍ خارق للعادة، إلى حادث

بسيط يمكن أن يقع فــي كلّ وقت وفــي كلّ مكان لنفس السبب الذي وقع به، ولا يستوجب إلّا القليل من الاهتمام، من القليل من الناس.

ولكن أنى لهم أن يهتدوا لسؤال الحارس، أو أن يقوموا ببحث فــي الموضوع، والظروف الزمانية والمكانية كلّها كانت ضداً على كلّ نزعة من هذا القبيل، فليس إلّا الخضوع والاستسلام إن مع الإيمان أو مع عدمه، لمن أراد النجاة وعدم التورُّط فيما لا تُحمد عقباه.

وغصت الكنيسة بالمؤمنين من جميع الطبقات، رجالاً ونساء، وبرز القساوسة والرهبان فــي زينة بديعة ومعهم الأطفال الصغار يحملون الصلبان والمباخر والشمعدانات الثمينة مما يُضفــي على المكان جواً من الرهبة والخشوع، وبدأت الترانيم الدينية المؤثرة تتخللها أصوات رخيمة جميلة للبنات والصبيان.

وأُقيمت صلاة الشكر للرب الأب الذي فــي السماوات على ما اختص به مدينة جنوة وكنيستها من فضلٍ عظيم، وألقى الأسقف الأكبر خطبة رائعة، تحدَّث فيها عن المعجزة التي حصلت فــي الليلة السابقة حين زار السيد المسيح كنيسته العظمى بجنوة، ونزل إليها من الأعالي ممتطياً فرساً فارهاً، فتلقته بغاية الشوق واللهفة، وانفرجت له سقوفها وجدرانها حتى حلّ برحابها ثم عادت فالتأمت بعد صعوده، والأبواب كلّها موصدة، لم يستعمل واحدة منها. وهل هو بحاجة إلى الأبواب والمنافذ ليتصل بأبنائه ويحلّ بينهم متى شاء وأنى شاء؟!

ثم كشف الأسقف الغطاء عن صحن رفيع كان بين يديه وبه بعض روثات طرية وُجدت بالكنيسة فجر اليوم نفسه، فهي ولا شك من أثر

الفرس الذي تمت به الزيارة الكريمة المُحتفَل بها، وأقبل الحاضرون على الصحن يتأملونه ويتمسحون به ويود كلّ واحد لو أخذ شيئاً منه على سبيل التبرُّك، مهما قَلّ وضؤل، إلّا الحارس الذي كان يعجب لما يرى وتعتمل فــي نفسه بواعث الشك والحيرة، ففيما يرى القداس العظيم الذي حلم به أول الليل هو نفسه الذي يُقام الآن يقظة لا مناماً، يخطر فــي باله المناسبة التي يُقام بها هذا القداس وحقيقتها التي يعلمها هو حق العلم، ثم يحاول أن يخطئ نفسه ويقول لَعلّ الأمر كما يظنون، لكنه يذكر أن الفرس كان جامحاً وأنه كان عرياً وأنه ربما عرفه من بين أفراس أهل المدينة، وأنه لم يكن يصحبه أحد لا راكباً ولا راجلاً، وأنه قاده بنفسه إلى خارج الكنيسة وضربه حتى عدا وابتعد عن رؤية بصره، فكيف يكون ما يسمعه صحيحاً وخصوصاً عن انفراج سقف الكنيسة ونزول الفرس من أعلى، وهو يعلم أنه نسي باب الكنيسة مفتوحاً ومنه دخل الفرس، وأنه لما أخرجه عاد فأغلق الباب بيده، فكيف يقبل أن الفرس صعد إلى فوق ولم يخرج من باب ولا منفذ؟

وانطوى على نفسه حائراً أشدّ ما تكون الحيرة، لا يدري ما يفعل، وصار إلى حالة من الوجوم فقد معها كلّ نشاطه، ولم يعد يأنس بأحد، أنه يخاف أن يفرط منه ما يظهر الناس على سريرته، لقد تضعضع ركن الإيمان المسيحي فــي قلبه، وتغيَّرت نظرته للأشياء، فأصبح يشك فــي كثير من الأمور التي كانت عنده حقائق مسلمة، وسيطر عليه الهم والحزن، فكنت لا تراه إلّا هائماً على وجهه شارد الفكر، لا يقر له قرار، فبينما هو فــي رحاب الكنيسة يتلهّى ببعض الأعمال، إذا به يتسكع فــي طرق المدينة من غير قصد ولا حاجة، وتعوَّد أن ينزل إلى الميناء، يسرح نظره

فــي البحر وينشق نسيمه المنعش، واستأثرت بانتباهه حركة المراكب البحرية الصادرة والواردة، وخصوصا هذه التي ترد من الضفة الأخرى للبحر، وكانت بين جنوة والمغرب خطوط مواصلات بحرية منتظمة فلم يفتأ يلاحظ أحوال هؤلاء البحارة الغرباء والركاب الذين يقدمون معهم ويستفسر عن شؤونهم، ويتتبع مواعيد ذهابهم وإيابهم، حتى أنس بهم وتعرَّف إلى أكثرهم وانعقدت بينه وبين بعضهم صداقة أدت إلى أن عزمه ذات يوم إلى بيته، فبات عنده، ورآه حين استيقظ فــي الفجر وتوضأ وصلَّى الصبح فسأله عن عمله ذاك فأخبره أنه عبادة وصلاة لله عَزّ وجَلّ، مفروضة على المسلم خمس مرات فــي اليوم وزاد سائلاً عن مضمون هذه الأقوال التي سمعه يردِّدها فــي صلاته وعقيدة المسلم ما هي، فبيَّن له ضيفه وصديقه بقدر ما يستطيع كلّ ما سأله عنه، وهو يستوعب ما يسمع ولا يعلِّق بشيء.

ومرت أيام وأيام وهو على حاله من التهمم والشرود ولا أحد يعرف ما ينطوي عليه صدره ولا ما يجول فــي خاطره حتى صديقه المغربي الأجنبي فــي بلاده وقومه، لم يكن يعرف شيئاً من دخيلته، لأنه لم يفضِ إليه بذلك قط، إلّا أنه فــي بعض الأيام كاشفه بأنه يريد زيارة المغرب فهل يأخذه معه؟ ولما رحَّب الصديق به سأله أن يكتم الأمر ويخبره بيوم إبحار المركب من جنوة عائداً إلى المغرب وهكذا حين حان الموعد وأقلعت السفينة المغربية من ميناء جنوة كان صاحبنا حارس الكنيسة مختبئاً فــي إحدى زواياها يُحدِّث نفسه بما أقبل عليه من تجربة حاسمة فــي مستقبل حياته.

وسارت السفينة تمخر عباب اليم متباطئةً تارة ومسرعة أخرى، بحسب

ركود الريح وهبوبها، وكلّما اقتربت من وجهتها وابتعدت عن محل قيامها هاج الشوق بالمسافر الغريب، وتساءل عما بقي من المسافة ومتى يكون الوصول، وصديقه المغربي يطمئنه ويحدِّثه عن بلاد المغرب وما سيجده فيها من المتعة والراحة إلى أن صارت معالم هذه البلاد تلوح له من بعيد، والبحارة يسمون له كلّ نقطة باسمها ويشرحون له ما خفي عليه، ثم بدأوا يستعدون للنزول وأخذت السفينة تتلمس مدخلها إلى مدينة الرباط، ولم يمر إلّا قليل من الوقت حتى كانت قد أرست بالشاطئ المغربي الجميل.

وكانت الرغبة الأولى للقادم الغريب هي الاتصال بالرئيس الديني للبلد، ولما أفهمه صديقه المغربي أنه ليس هناك رئيس ديني في الإسلام، وكلّ ما هنالك علماء دينيون وقاض يحكم بشرع الإسلام، سأله أن يوصله إلى القاضي مادام هو صاحب السلطة القانونية.

وصحبه صديقه إلى محكمة القاضي، وحين مثل بين يديه أظهر رغبته الملحة في اعتناق الإسلام والانسلاخ من دين النصرانية، ورحّب به القاضي غاية الترحيب ولقَّنه الشهادتين وعرَّفه بقواعد الإسلام والعقيدة الصحيحة في المسيح عليه السلام وسماه عبدالله وكتب له رسماً عدلياً بذلك.

وكان فرح صديقه وسائر البحارة بدخوله في دين الإسلام عظيماً، وعجبوا من حكايته التي كانت السبب في انحرافه عن دينه السابق، واحتفلوا به وعرفوا به أصدقاءهم، وصاروا جميعاً يتعهدونه ويقضون له مآربه، بحيث لم يشعر بغربة ولا أحس بفرقة موطن، وقد غمرته

سعادة روحية طفحت على جميع جوارحه وملامحه وجعلته يعتقد كأنه وُلِدَ من جديد.

وصادف أن يهودية أسلمت فــي تلك الأيام، فتزوجها ورزق منها ولداً سماه رضواناً، لأن ما أنار طريقهما وألَّف بين قلبيهما هو معرفة الحق والاستبطان الروحي لكلمة الله التي أوحاها إلى رسله الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام فقد كان هذا الولد بعلمه وعمله مرآة تعكس التعاليم الإلهية الثابتة فــي الكتب السماوية التي أوتيها الرسل المذكورون، وهو الرجل الصالح الذي عُرِفَ فــي التاريخ باسم الشيخ رضوان الجنوي، وكان يقول: خرجت من بين فرث ودم[1].

«المناهل» – نوفمبر 1977

---

(1) لهذه القصّة واقع تاريخي لم نتصرَّف فيه إلّا بما تتطلَّبه الحبكة الفَنّيّة لصوغه فــي صورة عملٍ أدبي.

فيلوبوليس

زرت هذه المدينة الأثرية الرومانية سنة 1947 فأوحت إليّ بالقصيدة التالية:

قـــف على أطـــلالها واعتـــبر كـــــيف دالـــــت دولـة المستعمر

وسـل الآثار عما أثـــــــرت تنبـك الآثـــار عـن مســـــتأثر

وقس الشـــاهد بالغـائب من نـــزوات الظـــــالم المستـــــهتر

واحـــــتكم فيه على الدهـر بما شـــــــاهدت عيناك من مـعتبر[1]

لا تقـــل طـــال عليه أمـــد إنمـــــــا الأمـر بــــوفق القـدر

فكأن قد عصـــــــــف الدهر بـه وطـــــــــــواه ثم لمـــا يـنشــــــر

هو سـطر رقمت أحــــــرفه بنضــار فـــي جمـــــيع الزبـر:

أنه مادام طــــــــــغيـــان ولا كـــــــانت العقب لباغ مجـــتري

***

(1) مصدر ميمي بمعنى عبرة

ايـه رومـا، والليـالي غـدر هل بصرت الحق أم لم تبصر

كان ما شـيدته عن ثقـة بدوام الفـتح أم عن بطـر

هذه القـوس لنصر رفعـت ولذكـرى قنصل أو قيصـر[1]

فغدت ذكرى لدحر سـاحق ولتمجـد رجـال غـير

وغدا المسـرح[2] عرضاً دائماً لمصـير الدخـلاء الخـتر

هي ذي أشـباحهم ماثلة بين أيـدي حـجـر أو مـدر

إننـي أسـها تصـرخ من خلل الصـمت العميق المزدري

وكـلاب من نحـاس مثلت قد عـوت فـي أثرهم من سـعر[3]

وخـراب ودمـار كـونا بيئة مجـبولة من كـدر

تلك نـار حسـبوها جنة فـرمتهم برجـوم الشـرر

***

أيهـا الواغـل فينـا إننـا لم نطـأطئ رأسـنا فـي عصـر

أن هـذي مثـلاث قد خـلت فاحـترز من مثلاث أخـر

(1) إشارة إلى ألقاب حكام الرومان والمراد بها قوس النصر التي ماتزال قائمة وسط المدينة.

(2) المسرح الروماني من آثار فيلوبوليس.

(3) من الآثار التي وجدت في فيلوبوليس، تمثال كلب من نحاس.

لا يغـــرنك ضـــعـــف ما، بنا ضـــــعفنا البركـــان لم ينفجر

هل يثور الشعـــــب إلّا من ونى أو يمد البـــــحر إن لم يجـــزر

***

إيه يا نشء البلاد المرتجـــــــى يا رجـــــــالات الغد المنتظر[1]

من لهذا الشـــعب فـي نكـبتـه من لهذا الوطـــــــن المحتضـر

من له ينشـــــــله من هـــــوة زل فــــيها قـدم المســــتبصر

أدركـــــــــوه يا بنـــيه وبـــه رمق قبل وقـــوع الخـــــطـر

أسـرعوا لا تخـــلفوا الظن بكم بملاقـــــاة انتشـــــار الضرر

طالما استصرخكم مســـــتنهضاً عزمـــــات لم تلن من خــــور

إنكــــــم عدته يـوم اللقـــــا فادفعـــوا عنه جـــيوش الغـير

«المناهل» - مارس 1978

(1) أنهى الشاعر قصيدته بهذه الأبيات التي أملتها عليه غيرته الوطنية في تلك الظروف العصيبة أيام الحماية. وفيها ذكرى وموعظة.

نقطة ضعف
فــي تاريخ ابن حيان

يحظى مؤرِّخ الأندلس أبومروان ابن حيان القرطبي (377 - 469) بتقديرٍ كبير من المؤرِّخين وعموم الكُتَّاب ببلده، يعتمدونه فــي الأخبار، وينقلون عنه تراجم الرجال، ويعجبون بأدبه وأسلوبه البليغ، حتى قال فيه تلميذه أبوعلي الغساني، وهو من هو علماً وديناً: «كان عالي السن، قوي المعرفة، مستبحراً فــي الآداب، بارعاً فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه، وأحسنهم نظماً (أي تأليفاً) له ونوه به ابن حزم فــي رسالته فــي فضل الأندلس، وهو بعد حي فــي طور الاكتهال كما قال، وكذلك نوه به الشقندي فــي رسالته المعروفة، ولا يُستغرَب من أهل الأندلس أن يحيطوا نابغة من نبغائهم بهذه الهالة من التقدير، وهم الذين عُرفوا بفرط الاعتزاز ببلدهم، والاعتداد برجالاتهم إلى حَدّ التعصُّب. على أنه فــي الواقع شخصية فذة لا جدال فــي قيمة ما قدَّمه إلينا من مادة تاريخية دسمة، تتوزَّع ماضي الأندلس من لدن الفتح العربي إلى زمنه، وحاضرها المعاصر له، فــي كتابيه «المقتبس» و«المتين»، بمجلداتها العديدة التي لم يصلنا منها إلّا أَقلّ القليل.

وبالاطّلاع على ما أمكن من هذه المادة، نجد أنه حقاً أديب متمكن واسع

المعرفة جزل العبارة قوي الأسلوب، بحيث يُعدّ من بلغاء كُتَّاب عصره، إلّا أنه سلم من آفة السجع الذي كان قد أصبح حلية الكُتَّاب وعلامة البراعة، وهذه المكانة الأدبيّة هي التي جعلته متميِّزاً بين المؤرِّخين بصفاء ديباجته وعلو لغته لأن طبع الأديب فيه يغلب على طبع المؤرِّخ، حتى أنه يقع فـي كلامه بعض الألفاظ الغريبة أحياناً، ومع ذلك فهو فـي التاريخ نسيج وحده، فـي عصره وبلده، استوعب تواريخ من سبقه لعهد الولاة وخلافة قرطبة إلى حين سقوطها، وسجّل ما شهده من أحداث التاريخ الكبرى كأخبار الدولة العامرية والفتنة البربرية وقيام ملوك الطوائف وغير ذلك بدقة متناهية واستقصاء كامل، مما جعله المرجع الوحيد فـي هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الأندلس الذي لا غنى عنه لكاتب أو باحث.

وبالجملة فهو من كبار المؤرِّخين الذين ظهروا فـي مغرب الوطن العربي، وإن لم يكتب تاريخاً عاماً يشمل البلاد العربيّة والإسلامية، كما فعل ابن جرير الطبري وابن الأثير وابن كثير وأبوالفدا وابن خلدون وغيرهم من أئمة التاريخ العام، لكنه وقد قصر تاريخه على بلاده الأندلس، سَدّ فراغاً لولاه لم يُسد، وعمل فـي دائرته الخاصّة عملاً متقناً، فلحق بركب المؤرِّخين المجدين والمؤلِّفين المتميِّزين فـي هذا الشأن، ويبالغ بعض الكُتَّاب فـي شأنه فيجعلونه أعظم مؤرِّخ ظهر فـي الأندلس، وربما فـي المغرب العربي كلّه، متأثرين بمبالغات الأندلسيين فـي تزكية بعضهم لبعض، ونحن لم نره تفرد بشيء ليس عند غيره من أعلام التاريخ المذكورين، وإذا كان كتاباه المشهوران: «المقتبس والمتين»، لم يصلا إلينا كاملين، وإنما وصلنا منهما أجزاء صغيرة، فإن زبدتهما قد استخلصها من أتى بعده من المؤرِّخين الذين وقفوا عليهما، وما هي ببدع فـي مدونات التاريخ.

نعم تفرَّد ابن حيان عن جمهرة المؤرِّخين العرب بشيء لا يُحمد عليه، ولا يُعد من الميِّزات الحسنة، بل هو نقطة ضعف فــي تاريخه، تجعل القارئ لا يطمئن إلى كلّ ما يرويه أو يخبر به، ونعني بذلك الذم والطعن والتشنيع على الناس، مما ضجّ منه غير واحد من العلماء والمؤرِّخين الذين نقلوا عنه واستفادوا منه، فكانوا يستخلصون المعلومات والإفادات التي تهمهم فــي الموضوع ويعرضون عن لمزاته وغمزاته ونيله من الأعراض والأشخاص الذين يترجم لهم. وابن بشكوال فــي كتابه الصلة أول من يفعل ذلك، ولما ترجم لصاحبنا ابن حيان أثنى عليه الثناء الجميل، وأشار إلى ما ينتقد عليه من ذلك فــي صورة إبراء على عادة العلماء، إذ حكى عن الفقيه الصالح ابن عبدالله بن عون أنه رآه فــي النوم بعد وفاته، فسأله ما فعل الله به فقال غفر لي. قال فقلت له فالتاريخ الذي صنعت ندمت عليه؟ فقال: أما والله لقد ندمت عليه إلّا أن الله عزّ وجلّ بلطفه عفــا عني وغفر لي. فهذه الحكاية صحت أم لا، فــي سياقها الجميل اعتذار لطيف كان هو الإعلان من ابن بشكوال- رحمه الله- عن عدم موافقته على صنيع ابن حيان فــي نث عيوب الناس ولو كانت واقعاً ثابتاً، فإنه لم يقدح فــي صدقه ولكنه استنكر التشهير بعباد الله فيما أمرنا بستره وعدم البحث عنه، لاسيما مع عدم المقتضى لذكره واستكمال فائدة الخبر بالسكوت عنه، فإنه حينئذ يصبح هجاء، وهل يكون المؤرِّخ هجاء (بكسر الهاء فــي الأول وفتحها مع التشديد للجيم فــي الثاني).

وإني أخشى أن يكون طبع الأديب بالمفهوم القديم قد غلب على ابن حيان، فساقه إلى قرن المديح بالهجاء، إذ كان الأمران لا ينفكان فــي نظر أهل الأدب فموضوع المدح يتبعه موضوع الهجاء، وخاصّة عند

الشعراء، وابن حيان، وإنْ لم يكن شاعراً، فهو قد تأثّر بأساليب الشعراء وأغراضهم فيما يظهر، واعتبر الهجاء فَنّاً من فنون القول، وغرضاً من أغراض الكتابة.

وقد كان ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة أصرح من ابن بشكوال في إدانة ابن حيان، حين سمَّى فعله هذا بالهجاء ولم يحجم في ذلك فقال وهو ينتقي مقاطع من نثره: «وهذه فصول مقتضبة من طويل كلامه في تاريخه، وكنيت عن أكثر من به صرح، وأعجمت باسم من به أعرب وأفصح، رغبة بكتابي عن الشين، وبنفسي عن أن أكون أحد الهاجيين» وتمثّل فيه بقول ابن الرومي:

مهما تقل فسهام منك مرسلة

وفوك قوسك والأعراض أغراض

وما تكلَّمت إلّا قلت فاحشــة

كأن فكيــك للأعراض مقراض

وهذا أحد الفصول التي ذكرها ابن بسام من إنشاء صاحبنا وأبهم المعنى به: «نعى إلينا فلان، وكان في غفلته وبعد فطنته وغباوة شاهده وفجاجة شمائله وشكاسة خلائقه، آية من آيات خالقه، من رجل نسمة ريب وقرارة حرب، على لسانه نملة تدب على أعراض الناس، لا يرعى لأحد ذمة، فصار مشنوءا إليهم ومرهقاً في دينه، محروماً لم ترتفع له قط حال، ولا فارقه إقلال، ولا أُتيح له مرفق إلّا من حيث يرتشى لتلقين خصم، أو توهين عقد أو دفع حق بمشاغبة، أو بهت خصم بمعاندة،

له في ذلك نوادر محفوظة، وكان مع هذه المساوئ وسخ الثياب، زمن المروءة، مكحل الأظفور، وضر الطوق، داني الغائط من المائدة، لا يتقذر شيئاً البتة وهو أول من لاعن زوجه بالأندلس فأرى الناس العمل في اللعان بالعيان».

والمعني بهذا الكلام البذيء هو الفقيه ابن الهندي المشهور من أعلام القُطر الأندلسي، فإنه الذي لاعن زوجته كما يذكر الفقهاء، في باب اللعان بحكم صاحب الشرطة، وعُوتب في ذلك فقال أردت إحياء سُنّة أُميتت حكاه عنه ابن عات، وتعقّبه البرزلي بقوله: قد أغنى الله تعالى عنه بما جاء في كتابه، يعني من الطلاق، والستر أولى، ولكن فات البرزلي أن اللعان قد يكون لنفي نسب فيجب، ثم هو مما يدرأ الحد عن الزوجة والقذف عن الزوج، فلم يُشرَّع عبثاً، بل لحفظ كرامة الزوجين معاً، وعليه فتشنيع ابن حيان على ابن الهندي به هو من التعنُّت إن لم يكن من الاعتراض على الشريعة.

ثم لننظر كيف يأكل لحم هذا الفقيه الكبير بعد موته، وكيف يعيبه بما وقع فيه هو من ثلب الأعراض، إلى غير ذلك من السباب القذر وكلّ ذلك مما نهى عنه شرعاً، فقد جاء في الحديث: سباب المؤمن فسوق.

وهذا إنما هو نموذج واحد من عِدّة فصول أثبتها ابن بسام في منتقى كلامه وأبهم المعنيين بها، ولكن الباحث المعروف الدكتور محمود علي مكي توصَّل إلى معرفة البعض منهم وسمَّاهم، فيما كتبه على القطعة التي نشرها من المقتبس، وهم ابن الحصار وابن مغيث وابن المكوى وابن ذكوان وابن زرب، وهؤلاء كلّهم من أعيان الفقهاء ورجال الفتوى

والقضاء، المعمول بأقوالهم وأحكامهم في المذهب المالكي، فيا لجرأة هذا الرجل على الحرمات، وخاصّة أهل العلم والدين.

والدكتور مكي على علمه وتحقيقه هو ممن يشايع ابن حيان وينتصر له. حتى أنه وصف تحرُّج ابن بشكوال من نقل مطاعن ابن حيان في أهل عصره وما حكاه من رؤيا ابن عون له في المنام، بالتديُّن الساذج، فالتديُّن الحكيم إذن هو سلوك ابن حيان!..

ويذكِّرني هذا الكلام بقول أمين الريحاني وهو يسخر بلحى رهبان لبنان في صورة دفاع عنهم: جعله الله دفاعاً مقبولاً لديهم فيدافعون عني يوم القيامة، كما قال ابن خلدون متمنياً في دفاعه عن حسب الأدارسة ونسبهم!.. فالموضوع بحاله، لأن ابن خلدون مقعد التاريخ وواضع علم الاجتماع، تعرَّض في مقدمته لتفنيد بعض مزاعم المؤرِّخين، ومنها الطعن في نسب الأدارسة بما تقوله خصومهم من أمثال البكري والمراونية الأندلسيين فضلاً عن العباسيين البغدادين، على إدريس بن إدريس من نسبته لراشد مولى هو أبيه، ضيقاً بدولتهم العلوية التي أنشأوها في المغرب وتحطيماً لها، فتصدَّى لهم بالإنكار والتنديد، غيرةً على آل البيت وانتصاره لهم، وقال في آخر كلامه: «وإنما أطنبت في هذا الردّ سداً لأبواب الريب، ودفعاً في صدر الحاسد، لما سمعته أذناي من قائله المعتدي عليهم به، القادح في نسبهم بفريته، وينقله بزعمه عن بعض مؤرِّخي المغرب ممن انحرف عن أهل البيت وارتاب في الإيمان بسلفهم، وإلّا فالمحل منزه عن ذلك معصوم منه، ونفي العيب حيث يستحيل العيب، عيب. لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا وأرجو أن يجادلوا عني يوم القيامة».

وليس فضولاً أن ندل على ما في كلام الريحاني من الاستهزاء بقضايا الدين ورجاله، ولكننا نريد أن ننبه إلى روح الحفاظ التي تقمصها فيلسوف المؤرِّخين، ولقّنها لأصحاب المهنة في هذه الفذلكة وأمثالها مما ضمّنه في مقدِّمته الخالدة، أشعاراً بأن التاريخ ليس قصيدة هجاء، أو مقالة تشهير بخصم، ولكنه إعلام نزيه وإنباه صادق وقول حق، وذمة وضمير ومسؤولية... وقد وضع ابن خلدون قواعد هذا العلم وقرَّر أصوله، ولكنه لم يطبقها على أحداث التاريخ التي حكاها في كتابه الكبير، اكتفاءً بما أعطاه من أمثلة تطبيقية في المُقدِّمة، لأنه لو تتبَّع ذلك لما انتهى إلى غاية ولوقع في حرجٍ كبير. هذا مع العلم بأنه لم يكن ليفوته مثل هراء صاحبنا ابن حيان، ولكنه أعرض عنه إعراض الكرام، يقيناً بكونه ليس من التاريخ في شيء. وتحامل المؤرِّخين أو تحيُّزهم باعتبار العامل السياسي وركونهم إلى حُكَّام عصرهم، هما من القواسم المشتركة بينهم جميعاً قدماء ومحدثين، وما ابن حيان إلّا واحد منهم، فتوليه لخلفاء قرطبة وبني جهور من ملوك الطوائف هو مما تطفح به صفحات تاريخه، ولكن هذا ليس مما يعنينا الآن، فنحن إنما نتكلَّم على هذه الانتقادات الاعتباطية والنزوات الشخصية التي تُفرَض على التاريخ وتُدَس بين ثناياه، ومن منا لا ينكرها وقد أنكرها ابن حيان نفسه في كلامه عن أحد الشعراء، الذي أرسل آفة على أهل بيت لأمرٍ أوذى به من بعضهم، فعمَّم بهجائه وأفحش لهم»[1] على أن هذا من شأن الشعراء، وليس من شأن المؤرِّخين.

ولنستمع إلى كلمة قيمة في هذا الصدد من كتاب «معيد النعم ومبيد

(1) انظر ص 176 من المقتبس، تحقيق د. مكي. نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة-.

النقم» لتاج الدين السبكي، قال وهو يتحدَّث عن طوائف العلماء: ومنهم المؤرِّخون، وهم على شفا جرف هار، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق، فلابد أن يكون المؤرِّخ عالماً حافظاً عدلاً عارفاً بحال من يترجمه، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصُّب له، ولا من العداوة ما يحمله على الغض منه، وربما كان الباعث له على النيل منه مخالفته له في العقيدة أو المذهب... وكثيراً ما يتفق هذا لشيخنا الذهبي في حقّ الأشاعرة، والذهبي أستاذنا والحق أحقّ أن يتبع.. وقد عقد ابن عبدالبر باباً في أن كلام العلماء بعضهم في بعض لا يقبل، وإن كان كلّ منهم بمفرده ثقة حجة. ومنهم من تأخذه في الفروع الحمية لبعض المذاهب ويركب الصعب والذلول في العصبية، وهذا من سوء أخلاقهم، ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في التعصُّب بحيث يمتنع بعضهم من الصلاة خلف بعض، ولو كان الشافعي وأبو حنيفة حيين لشدَّدا النكير على هذه الطائفة.. انتهى باختصار.

وبالإشارة إلى ما ذكره من تعصُّب الفقهاء وإزراء بعضهم على بعض، نذكر هنا ابن حزم عصري ابن حيان، فإنه في هذا الباب قد جاوز كلّ الحدود في الطعن على الأئمة والاستخفاف بهم، اعتداداً بمذهبه الظاهري، واعتقاداً منه بأنه هو الصواب الذي لا يرقى إليه خطأ حتى شبَّه بعض العلماء لسانه بسيف الحجاج. ولعلَّه ما أثنى على صاحبنا ابن حيان إلّا لتوافقه وإياه في هذا الأمر.

ونذكر من الأدباء الفتح ابن خاقان وما كتبه عن أبي بكر بن باجة في قلائد العقيان من السخافات، حتى أنه طعن في دينه، وهو العبقري

النافذ البصر في فنون العلم والأدب، والذي يُعدُ مفخرة من مفاخر الأندلس برغم كلّ ما قاله فيه صاحب القلائد.

ومن المؤسف أن تتجلَّى هذه الظاهرة في فئة من أهل العلم والأدب وهي ظاهرة مرضية نفسية لا تُشرِّف صاحبنا بحال، ولكن الذي يبعث على الارتياح هو أن أحداً لا يبالي بها ولا يحملها إلّا على محملها الكريه من الغرض والأنانية واختلال المزاج، ومن ثَمّ حكم الفقهاء بعدم جواز شهادة العلماء بعضهم في بعض لما يكتنفها من الشبهة وسوء القصد إلّا من رحم ربك، وبالله التوفيق.

«المناهل» - مارس 1984

الألفاظ والأساليب المستحْدَثة

تحيا الأمم بلغاتها كما تحيا اللّغات بأممها، فإذا رأيت أمة خاملة الذكر ضعيفة الحول، فإنك لابد أن تجد لغتها قاصرة مُتخلِّفة، تعكس الأوضاع القائمة فيها من مجتمع بدائي وحياة ساذجة وجيل من الناس محدود النشاط والتفكير، وبالعكس إذا كانت الأمة حيَّة مُتطلِّعة إلى آفاق النمو والتطوُّر، كانت لغتها مستجيبة لحيويتها متفاعلة مع عوامل التغيير الذي تتعرَّض له، فلا تلبث أن تصير من اللّغات ذات الشأن، أسوة بالذين يتكلَّمون بها.

ولكم رأينا من أمةٍ لم تكن شيئاً مذكوراً هي ولغتها، فما إن مَسَّها تيار التطوُّر والتغيير، حتى برزت للوجود تأخذ وتعطي وتتبادل أسباب التقدُّم والرقي مع غيرها من الأمم النامية، بوسيلة اللّغة التي دبَّت فيها نسمة الحياة من أبنائها الناهضين. إنما الغريب أن تموت اللّغة بموت أهلها بعد الازدهار والانتشار حتى يصبح فكُّ رموزها من الفتوحات العلمية كما وقع في لغة قدماء المصريين، أعني الهيروغليفية، مما يؤكِّد أن الصلة بين حياة الأمة واللّغة، شيء واقع لا مرية فيه.

ويستثني من ذلك بعض اللّغات التي تُعدّ أُمّاً لغيرها من اللّغات المتفرِّعة عنها، فهي وإن ماتت بموت المتكلِّمين بها، بقيت محفوظة في فروعها

المنتشرة بين أمم حيَّة، لا تفتأ تستمد منها وتوسِّع لغاتها بالرجوع إليها اقتباساً وتوليداً واشتقاقاً وتنظيراً، وكان هذا من حظ اللّغتين اليونانية واللاتينية اللتين تعتمدهما أكثر اللّغات الأوروبية المستعملة اليوم لاسيّما المنبثقة أصلاً من اللاتينية.

والاستثناء الأعظم من هذا هو اللّغة العربيّة، لغة الوحي والتنزيل، التي استهدفت لكثير من عوامل الركود والتخلُّف، بعدما كانت عليه من النمو والازدهار حتى طبقت أرجاء العالم، وأصبحت لغة العلم والحضارة في بلاد الشرق والغرب، طوال العصور الوسطى واستوعبت ثقافة الهند والفرس وسائر الشعوب القديمة، لكنها بعد ذهاب دولتها بسيطرة الأعاجم على العرب وغزو الفرنجة لأرضهم ثم استيلاء الغرب على مقدراتهم الماديّة والأدبيّة، واضمحلال حضارتهم حتى أصبحوا عالة على الأجنبي في كلّ شيء، في هذه الحالة، لم يكن هناك مناص من دخول العربيّة في عِداد اللّغات الميتة لولا القرآن العظيم الذي حفظها وحفظ العرب أنفسهم من المصير الذي لقيه غيرهم من الأمم البائدة.

فهنا كانت اللّغة هي صمام الأمن وضامن الوجود لأمة الرسالة الخالدة التي يقول كتابها: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»، ومن اللطائف في هذا الصدد ما رُوي عن القاضي إسماعيل أنه قِيل له لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن فقال لأن الله تعالى قال في أهل التوراة: «بما استحفظوا من كتاب الله» فوكل الحفظ إليهم، وقال في القرآن: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» فتكفَّل هو بحفظه، فلم يجز التبديل على أهله، ذكره عياض في المدارك، وهكذا بقيت العربيّة وبقي العرب فصحَّ ما قلنا به أول هذا الحديث أن الأمم تحيا بلغاتها كما

تحيا اللّغات بأممها.

ولا أُشير إلى فشل المحاولات التي أُريد بها الإيقاع باللغة العربيّة وإلحاقها باللّغات الميتة، كإحلال العاميات الناشئة في مختلف البلاد العربيّة محل الفصحى، وجعلها كاللّغات المنبثقة من اللّغة اللاتينية للقضاء عليها وتمزيق شمل الأمة العربيّة، وكاقتراح كتابتها بالحرف الإفرنجي كما حصل في اللّغة التركية وغيرها من اللّغات التي كانت إلى أوائل هذا القرن تُكْتَب بالخط العربي، لفصلها عن ماضيها المجيد وتراثها العتيد، وغير ذلك مما يوحي به خصومها وخصوم حضارتها، ويتلقفه مع الأسف بعض العَقَقَة من أبنائها عن علمٍ مدخول أو جهلٍ مستحكم، ويرجون له من حين لآخر بين الطلبة والشباب لعلَّه يجد منهم قبولاً ورضى، فهذا نوع من الحروب التي تشن على أمتنا العربيّة في شتى الميادين وكلّ الأوقات، فتشحذ عزيمتها وتقوى همتها للمزيد من النضال، وإحراز الخَصْل في كلّ مجال.

غير أن ما لابد من ذكره والتنويه به، هو هذه الجهود المتضافرة، والأعمال المتواترة من أبناء العربيّة الأبرار، كُتَّاباً وشعراء، وأساتذة وصحافيين ومجمعيين، وفي طليعتهم أعضاء مجمعنا القاهري الموقَّر، لبحث لغتنا الضادية وإحلالها محل الصدارة بين اللّغات العالمية الكبرى، كما كانت وستبقى كذلك بإذن الله مع تفوُّقها عليها بما تختص به من الريادة في عالم المعرفة الإنسانية والقوامة الروحية على التراث الإنساني لا ينافسها في ذلك أي لغة في العالم.

ويتمثَّل البعث اللّغوي الذي تحرص عليه الجهات والفئات من الناس

الذين ألمعنا إليهم في أمرين اثنين:

أولهما: الحفاظ على سلامة اللّغة من الشوائب التي تكسف نصاعتها كالألفاظ العامية والتراكيب المنافية للفصاحة بمخالفتها لقواعد النحو والتصريف، والاقتباس من اللّغات الأجنبية بغير مراعاة لصرف التعريب والترجمة الصحيحة.

وثانيهما: سَدّ فراغاتها المعجمية والتعبيرية بما يُغنيها ويُثريها من الألفاظ والأساليب التي هي في حاجة إليها كالمصطلحات العلمية والتقنية والمفردات والأسماء، التي تعين الأدوات والأجهزة الحضارية الحديثة فإن هذه الأشياء في تزايد مستمر ولابد لمسايرة ركب التقدُّم من إيجاد الوسائل التي تبلغنا إليه، وأولها الرصيد اللّغوي الذي نودعه إياه.

واللّغات لا تنمو وتتسع بغير الأخذ والعطاء وقد أعطينا كثيراً من لغتنا للّغات الأخرى، ففي الإسبانية ما يزيد على 15 % من المفردات العربيّة في مختلف مجالات الحياة من اجتماع واقتصاد وعلوم طبية وفلكية وزراعية وغيرها، وأما في الأدب والشعر والقصص والأمثال فإن عطاءنا في ذلك كان هو أساس الإبداع والخلق عند الإسبان ومن تأثر بهم في هذه الفنون، وما تزال أسماء بعض النجوم وبعض الآلات الهندسية وبعض المناطق الجغرافية، بل بعض العلوم بذاتها في اللّغات الأوروبية الكبرى كعلم الجبر، باللّغة العربيّة، فإذا عدنا لأخذ ما نحن في حاجة إليه من ألفاظ وأساليب عن اللّغات الأخرى فهي قد سبقت إلى الأخذ عنا، وكذلك سبق أسلافنا فأخذوا عن اللّغات القديمة ما يعبر عنه بالمعرَّب من الألفاظ وصقلوه فصار من صميم العربيّة ودخل حتى في لغة القرآن الكريم، وما

نقص ذلك من قدر اللّغة العربيّة ولا أثَّر في أصالتها، لأن كيانها محفوظ بقواعد النحوية والصرفية والبلاغية، ولا تدخل كلمة إلى معجمها حتى تصهر في بوتقة هذه القواعد وتصوغها على قالبها وقياسها المعروف والمقبول.

ومن هنا يظهر أن الألفاظ والأساليب المُستحْدَثة ليست كلمات وجملاً تقمش من هنا وهناك، ويؤتى بها على غير هدي، لتضخيم المعجم العربي وجعل حجمه أكبر مما هو، فإن الأمر أعظم من ذلك، إن الكَمّ والكَيْف فيه مقترنان، والحداثة والعراقة ملازمان، وما نستحدثه منه غالباً ما يكون له جدع أصيل في اللّغة العربيّة وطرق تعبيرها نعتمد فيه الاشتقاق والتوليد والنحت والتركيب والمجاز والاستعارة والكناية وغير ذلك مما يؤدي المعنى المُراد، ويكون وضعاً جديداً يضاهي عمل الواضع الأول، وعمل الواضع كما نعلم هو جعل اللفظ دليلاً على المعنى، ومن ثَمّ يكون المستحدث على هذه الطريقة عربياً خالصاً لا غبار عليه، أما إن كان مما يقتبس من لغةٍ أخرى فلابد من خضوعه لعملية التعريب التي أشرنا إليها آنفاً، وهي عملية معروفة ومتبعة في سائر اللّغات، وكلّنا نعرف ما عمله الأجانب في اسم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يميِّزونه عن غيره من الأسماء الموافقة له، فالمقتبس على هذا النحو هو أيضاً من صِحاح العربيّة الذي يثبت قاعدة تعامل اللّغات بعضها مع بعض وقد أسرف بعض اللّغويين المُتشدِّدين فانكر المعرَّب من الأساس وزعم أنه عربي أصيل.

وعلى كلّ فقد أضاف القرآن إلى متن اللّغة معجماً كاملاً، لاسيّما في المعاني الشرعية والقانونية، ولم يزد على أن خصَّص العام وقيَّد المطلق

وبيَّن المجمل، فأوجد لكلمات الصلاة والزكاة والوضوء والغسل والزكاة، والأضحية والجهاد والرباط والقراض والسَّلّم والإجارة والجعل وغيرها من مئات الألفاظ معاني ودلالات لم تكن لها من قبل، وهي هي نفس الألفاظ العربيّة التي كانت موجودة بالفعل وبالقوة ولا علاقة لها بما أصبحت تفيده من بعد، تماماً كما فعلنا نحن في كلمة الجريدة والسيارة والباخرة والهاتف والثلاجة والكلية والجامعة والدستور والقانون والإذاعة والإعلام والإدارة إلى ما لا يُحصى من الألفاظ المُستحْدَثة ذات الدلالة الجديدة وإن كانت قديمة.

أما إذا نظرنا في الأساليب القرآنية التي صاغ بها الكتاب العزيز دعوة الإسلام وخاطب العرب بما أهلهم له من إبلاغ رسالته إلى البشرية جمعاء فإننا نجد أمراً عجباً لم تكن هناك كلمة للتعبير عنه قبل وبعد أنسب من الإعجاز، فإنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالخطابة ولا بالسجع ولا غير ذلك مما تعرفه العرب في فنون القول، فكان أن ألقوا باليد وأقرُّوا بالعجز وهم أساطين البلاغة وفرسان البيان حتى كان منهم من سجد لسماع بعض آياتٍ منه، وتسمية جمله وفقره بالآيات هي نفسها من باب الإكبار والانبهار بأسلوبه الرائع، والموضوع بحاله كما يقول علماؤنا في هذا المقام، فإن الكلمات والمفردات هي هي، ما عرفوا وعلموا، ولكن الصياغة شيء آخر، غير ما عهدوا واعتادوا، فلقد روي عن الأصمعي أنه قال سمعت بنتاً عربيّة خماسية أو سداسية تنشد:

استغفر الله لذنبي كلِّه … قتلت إنساناً بغير حِلِّه

مثل غزال ناعم في دَلِّه … وانتصف الليلُ ولم أصله

فقلت لها قاتلك الله ما أفصحك، فقالت ويحك أيعد هذا فصاحةً مع قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين:

وهذا بعد انتشار الإسلام والعلم والمعرفة وتفتُّح الأذهان وارتفاع المستوى الثّقافي لدى عامّة العرب بما يفوق عِدّة درجات ما كان عليه الخاصّة منهم، وحكي عن بعض البلغاء أنه كان يتمشدق بمعارضة القرآن حتى إذا قرأ قوله تعالى في قصّة الطوفان من سورة هود: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ»، سقط في يده وعلم أن ما يحاوله إنما هو عبث وليد، وعبارة سقط في يده نفسها هي مما أتى به القرآن ولم تكن العرب تعرفه، وذلك في قوله تعالى من سورة الأعراف: «وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ» وقد عدّها علماء البلاغة من روائع كلم القرآن..

وهذا الذي قلناه في أسلوب القرآن، وقاله العلماء قبلنا، قد عبَّر عنه رئيس مجمعنا السابق الدكتور طه حسين- رحمة الله عليه-، بكلام بيِّن واضح مركَّز يطيب لنا أن نسوقه هنا وهو قوله: «إن القرآن ليس نثراً وليس شعراً ولا يمكن أن يُسمَّى بغير هذا الاسم، ليس شعراً وهذا واضح فهو لم يتقيَّد بقيود الشعر، وليس نثراً لأنه مُقيَّد بقيود مخصوصة لا توجد في غيره، وهذه القيود بعضها يتصل بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصّة. كان وحيداً في بابه، لم يكن بعده مثله، ولم يحاول أحد أن يأتي بمثله وتحدَّى الناس أن يحاكوه، وأنذرهم أن يجدوا إلى ذلك سبيلاً».

ورفد الحديث النبوي اللّغة العربيّة بمثل ما رفدها به القرآن أو بقريب منه، لفظاً وأسلوباً ولا غرو فهو صلَّى الله عليه وسلَّم، أفصح العرب، وأوتي جوامع الكلم ولم يفتأ علماء البلاغة، يضعون كلامه في المرتبة الثانية بعد القرآن، وقد تكلَّم بكلمات لم يسبق للعرب أن نطقت بها كتعبيره عن النساء بالقوارير في قوله: لأنجَشة الحادي[1]«يا أَنَجَشَةُ رفقاً بالقوارير» وكانت هذه الكلمة أبلغ ما سمع في وصف النساء وطبيعتهن الرقيقة وسرعة تأثرهن، وهي تشبه ما يُقال الآن في النساء من وصفهن بالجنس اللطيف، ومن بليغ كلامه قوله في غزوة حنين «الآن حمي الوطيس» قال في النهاية: الوطيس التنُّور، وهو كناية عن شِدَّة الأمر واضطرام الحرْب، ويُقال إن هذه الكلمة أول من قالها النبي (صلَّى الله عليه وسلَّم)، لما اشتدّ البأس يومئذ، ولم تُسمع قبله، وهي من أحسن الاستعارات ونستطيع أن نقول باطمئنان إن الروح التي نفخها القرآن والحديث في اللّغة العربيّة جعلتها أعظم اللّغات السامية أو أمها كما يقول غير واحد من العلماء، وضمنت لها البقاء على الدوام، وصارت بعد ذلك لا تزداد إلّا غنى وثراءً لاسيّما وقد سار الصحابة على نهج الرسول في إعلاء شأن العربيّة والتمكين لها في أقطار الأرض، بحيث أصبحت اللّغات الكبرى في ذلك العهد تبعاً لها ووضع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قواعد لضبطها وحفظها من التغيير هي ما سُمي بعلم النحو، وهكذا تُوبعت المسيرة في العصور الوسطى حين نُقلت العلوم والفنون وتُرْجِمَتْ كتب الأوائل في عهد الأمويين والعباسيين فأحضنتها العربيّة

(1) أنجشة اسم حبشي كان ذا صوت حسن، وكان يحدو أي يغني للإبل فشرع السير السريع تأثراً بالحداء، وكان هذا في سفر فخشى النبي(صلَّى الله عليه وسلَّم)، على النساء اللائي كن معه أن يجهدن السير السريع فقال له هذه الكلمة.

ولم تضق بشيء منها، بل زادت عليها واتسعت بما لم تتسع به لغة قبلها، إذ صارت مستودعاً للمعارف البشرية تقتبس منها الأمم والشعوب وتحتذي حذوها في التجديد والإبداع.

ولما أصابها ما أصابها من الفتور بسبب فتورنا نحن في الحقب المتأخرة اعتباراً بقاعدة (اللّغات بأممها)، لم تفتأ أن انبعثت من جديد بانبعاثها وتأثرنا لخطى سلفنا في تنميتها وحقنها بدم جديد، من العمل الذي تقوم به النخبة في هذا المجمع والمجامع العربيّة الأخرى، وسبق أن قام به جيل النهضة قبل تأسيس هذه المجامع، وهو ما يستحدث من ألفاظ وأساليب بالطرق المتبعة في ذلك من أول يوم أحسّ العرب فيه بحاجة لغتهم إلى التطوُّر والتنمية ونتج عن ذلك أن صارت العربيّة أداة طيِّعة للتعبير عن كلّ ما يختلج في النفس من أدق المشاعر وأعمق الأحاسيس، وتصوير كلّ ما تقع عليه العين من مختلف المرئيات ومُتنوَّع المشاهد، وأصبحت تتوفَّر على عشرات الآلاف من المصطلحات العلمية والفَنّيّة والحضارية التي وُضِعَتْ حديثاً ولم يكنْ لها وجود قبل زمنٍ قليل، ونبغ فيها الكُتَّاب والشعراء، الذين يضاهون كبار كُتَّابنا وشعرائنا في العصر العباسي الأول ثم هي ما تزال تطوي المراحل وتبغي فوق ذلك مظهراً.

وإذا كان هناك ما يُلاحظ على عملنا اللّغوي. فهو بطؤه الذي يجعل المسيرة تتعثّر أحياناً من عدم إيمان البعض بطاقة العربيّة وقدرتها على، استيعاب المستجدات من العلوم والفنون والتقنيات، ومن ثَمّ يعارض هذا البعض في تدريس المواد العلمية بالعربيّة ويتحمّل مسؤولية تأخر الركب العربي عن قافلة التقُّدم التي لا تنتظر أحداً، وأحياناً من تعارض الاتجاهين المحافظ والمُجدِّد، فحينما يتزمَّت الأول حتى يمنع ما لا يجوز

أن يمنع يندفع الثاني فيقع في محظورات لا تقبل بحال، وتحتد المعركة ولا يسفر العمل عن نتيجة إلى أن يأتي التمحيص وربما لا يأتي.

ومثالاً على ذلك نذكر لفظ (الفَنّان) الذي أطلقه العرب الأولون على حمار الوحش لتفَنُّنه في العدو، وكان بعض المعاصرين استعمله في وصف رجل الفَنّ، فلم يرتضه الملتزمون بالنصّ اللُّغوي، وكان كُتَّاب مثل مصطفى الرافعي يضطرون إلى استعماله فيضعونه بين قوسين للتعبير عن تحفُّظهم بإزائه، مع أن له أكثر من وجه لتخريجه عربياً، وقد أشرنا إلى ذلك في بحثنا الذي ألقيناه في هذا المجمع منذ سنوات بعنوان السليقة عند العرب المحدثين.

ومثله الجدال الذي يثور من حينٍ لآخر في جمع معجم على معاجم ومشهور على مشاهير، زعماً بأن قياس الأول معجمات والثاني مشهورون، وليس هذان بأقيس من معاجم ومشاهير، ومن التطاول أن يُغيِّر مُصحِّح الطبع اسم كتابي مشاهير رجال المغرب في مُقدِّمته إلى مشهوري رجال المغرب. وحمدت الله على أنه لم يستطع أن يُغيِّره في عنوان الكتاب الخارجي المرسوم بمعرفة خطّاط، ويلجأ المجيزون للجمع المذكور إلى تتبُّع الكلمات التي جاءت على وزنه للاحتجاج بها، مع أن من المقرَّر نحوياً أن مفاعل هو من باب فعالل الذي قال فيه ابن مالك:

وبفعالل وشـــــبهه انطقا في جمع ما فوق الثلاثة ارتقى

من غــــير ما مضى...... ....

وقد ذكروا أن شبه فعالل مفاعل وفياعل وفعاول وغيرها مما هو مثله

عدداً أو هيئة، وإن خالفه زنة، كمفاعيل وفعاعيل ونحوها، فهذه كلّها جموع لما زاد على الثلاثة من الرباعي فما فوقه، أصلياً أو مزيداً، باستثناء باب كبرى وسكرى وأحمر ورام وكاهل ونحوها، وهو ما أشار له ابن مالك بقوله: (من غير ما مضى) فإن له جموعاً أخرى ذكرها، ويدخل فيما يعنينا هنا أعني مفاعل معجم ومصحف، مما أوله مضموم ومسجد وموطن مما أوله مفتوح ومعول ومضرب مما أوله مكسور، فيُقال قياساً معاجم ومصاحف ومساجد ومواطن ومعاول ومضارب، ويُقال في مشهور ومرسوم ومفهوم مشاهير ومراسيم ومفاهيم قياساً أيضاً.

والأمثلة على اجتهاد بعض اللّغويين في حال وجود النص كثيرة، ويكون الخطب سهلاً إذا وافق الاجتهاد النص، ولكن المشكلة هي أن يخالفه، وأن يتعصَّب له صاحبه فتصير عويصة، وكلّ ذلك مما يعوق مسيرة العمل اللُّغوي ويبطئ به إلى حَدٍّ بعيد.

وأما قبل وبعد فإن حرصنا على أن تسير حملة التنمية اللّغوية في الطريق السوي ولا تخالف عنه يميناً أو يساراً، ليس فقط لتجنُّب المعوقات وسرعة الوصول إلى الغرض المنشود، بل ولربط الحاضر بالماضي، والمحافظة على هذه الميزة التي تجعل اللّغة العربيّة حيَّة في أذهاننا كما كانت في أذهان آبائنا وأجدادنا، فلا نبتعد عن مظلّة القرآن الذي هو الحارس الحقيقي لها ولنا.

«المناهل» - مارس 1985

نحنُ والتّراث

من المفارقات الغريبة التي يمكن لكلّ واحد أن يلاحظها في موقف الناس من التراث، أن الذين لا ماضي لهم أي لا تراث، يهمهم الأمر أكثر من الذين هم بالعكس أصحاب تراث وماضٍ يرجعون إليه ويستظهرون به.

فثّمة شعوب كثيرة لم يكن لها وجود مُتميِّز على الخارطة الجغرافية في مختلف القارات، لأنها كانت مندمجة في غيرها، أو كانت على جانب من التخلُّف لا تشعر به، فلما استقلَّت بأمرها أو مسَّها عامل التحوُّل الحضاري بحكم تقارب الأبعاد وما ينشأ عنه من اتصال الأفراد والجماعات واحتكاك بعضهم ببعض، بدأت في حفر الجذور واستنطاق الأحجار، وصنع مشجرات الأنساب، وإقامة متاحف الآثار، وأصبحنا نسمع عن مأثوراتها الشعبية، وفنونها الحضارية، ما لم يكن معروفاً من قبل.

وهناك بالمقابل شعوب وأمم يظهر أنها أُصيبت بتخمة التراث فجعلت تتخلَّص منه وتزهد فيه، وربما تنكَّرت له، واتخذت من تراث غيرها بديلاً منه، وكثيراً ما يحدث ذلك من جهلٍ بقيمة تراثها، أو بباعث

الإعجاب بما هو أجنبي عنها مما يجعلها تستقي ماء أجاجاً وعندها العذب الفرات...

ويكون مما يدعوها إلى هذه الحالة من الاستلاب، الرغبة في التحديث والتجديد وما يُدعى بالمعاصرة، وهو التصوُّر الذي طغى على بعض الأمم والشعوب الأصيلة الغنية بتراثها وحضارتها، فعجزت عن أن تبني على أصالتها وتنبعث منها، ورأت أن أصالتها هذه، هي سبب اندحارها أمام التوهجات الحضارية العصرية، فساورها هاجس المعاصرة، حتى توجَّست خيفة من أصالتها وصارت تتساءل: الأصالة أم المعاصرة؟ كأن بين المقولتين تضاداً.

ويُخيَّل إليّ أن الذين ينادون بشعار المعاصرة، وهم يعيشون حضارة القرن العشرين ويقبسون منها، نسوا أن أصحابها كانوا من الفريق الأول الذين لا تراث لهم، فاصطنعوا التراث اليوناني والروماني، وما لي لا أقول والعربي وإن كانوا يتآمرون عليه بالسكوت، وعلى أساس هذا التراث بنوا حضارتهم الجديدة.

وأكاد أقول إن هؤلاء الذين ينادون بالمعاصرة، لا يعيشون عصرهم فإنا نرى بلداً من أكثر البلاد تقدُّماً علمياً وحضارياً، وممن يتهافت المفتونون بالمعاصرة على التلقِّي منه والتقليد له، وهو فرنسا، بالرغم من تطوُّره العظيم يتفانى في الدفاع عن أصالته والمحافظة على تراثه، وقد شعر بمزاحمة اللّغة الإنجليزية للّغته الوطنيّة في الخارج، وهجومها عليها في الداخل باصطناع أبنائه لبعض المفردات والمصطلحات والعبارات

التي يستعملها الإنجليز فهو ما يفتأ يقاوم هذا الهجوم ويحرص على تنقية لغته من الألفاظ الإنجليزية الدخيلة، وفي المدة الأخيرة احتفلت الأكاديمية الفرنسية بتقديم ألفي كلمة فرنسية أصيلة لتحلّ محلّ تلك الكلمات الأجنبية في لغة الحديث والصحافة والعلوم، ونوَّهت الأوساط الفكرية والأدبيّة بهذه المبادرة التي تدل على الاعتزاز باللّغة الوطنيّة وإيقاف موجة الاستهتار بالمقومات الذاتية للأمة عند حدّها.

ومعلوم أن اللّغة هي مظهر أصالة كلّ شعب، والوعاء الذي يستوعب تراثه ومعطياته الفكرية، فالذين لا يبالون بها، ويقدِّمون عليها لغة أجنبية إنما يعملون على الانسلاخ من قوميتهم والذوبان في غيرهم، وهذا ليس من المعاصرة في شيء ولذاك رفضه الفرنسيون، ولم نسمع أحداً منهم ارتضاه أو دعا إليه كما وقع عندنا منذ فجر النهضة الحديثة وصدر من أقطاب في السياسة والعلم والأدب، فمنهم من دعا إلى كتابة العربيّة بالحرف الإفرنجي، ومنهم من روَّج للّغة العامية بكتابة بعض المسرحيات وإصدار بعض الصحف بها، وذاك ما جعل حافظ إبراهيم يقول في تأتيته الشهيرة:

أيهجوني قومي - عفا الله عنهم — إلى لغة لم تتصل برواة

ومع أن دعوات هؤلاء المتمرِّدين على اللّغة العربيّة، رُفضت من أول يوم إلّا أن صداها لم يزل يتردَّد بين الشباب المتعلِّم باللّغات الأجنبية، والمثقَّف ثقافة حديثة لم تتطعم بشيء من التراث العربي الأصيل، فتولَّد من ذلك جيل ثالث لغته عربيّة وفكره أجنبي، وهو يعتقد أنه يمدّ

الجسور بين الاستعراب والاستقراب، ولكن أعماله كثيراً ما تصب في قناة الاستغراب، ومن ثَمّ فهو مايزال ينسج على منوال التغريب متأثراً بالتراث الأجنبي حتى في أخطائه المتعمَّدة أو العفوية في تقويم تراثنا العربي والإسلامي، مما حدا به إلى هجر هذا التراث، وعدم الاستفادة منه وانعكاس ذلك على تفكيره ولغته التي ضعفت واعتادها اللحن وسادها الغموض ضرورة عدم إتقانه لقواعدها، وأما فنون بلاغتها فقلما يلم بها أحدهم، بل إن منهم من صار يُبشِّر بفَنّ القول في اللّغات الأخرى حتى سقط في هوة الاغتراب عن أجواء التراث العربي، فصار لا يُفهم عنه ما يقول، وتكون المفردات العربيّة التي تقع في كلامه، مثلها مثل التي تقع في الفارسية أو التركية، فانضاف إلى الاستغراب والاغتراب وصف ثالث من المادة نفسها وهو الغرابة، وليست هي الغرابة التي يتحدَّث عنها البلاغيون، ويمثلون لها بقول الشاعر:

ومقلة وحاجباً مزججاً وفاحماً ومرسناً مسرجاً

فإن هذه تتعلَّق بلفظ واحد، وهو مسرج، الذي لم يعرفوا هل هو من السيف السرجي أو من السراج، ولكنها الغرابة في بنية الكلام وصياغته أي قاموسه وأسلوبه، وقد قرأت ديواناً شعرياً كاملاً مكتوباً بالحروف العربيّة وألفاظها، فلم أفهم منه إلّا اسميّ رابعة العدوية وعروة بن الورد، وهو من إبداعات الشعر الحُرّ الذي ملأ الساحة وحيَّر الناس.

وأهداني صديق لي ديواناً من نظمه على الطريقة المرموزة، وكنت حريصاً على أن أقول له كلمة عنه، فلم أدرِ ما أقول لأني بكلّ صراحة

لم أفهم شيئاً منه، فأجبته منوهاً بإخراجه الطباعي الممتاز، ومتمنياً أن لو كان وضع له مُقدِّمة تكشف عن رموزه وتوضِّح أفكاره التي لا يدركها عموم القرَّاء، والواقع أن هذه أمنية جديرة بالتحقيق من جانب أصحاب هذه الدواوين إذا كانوا يكتبون لعموم الناس، ويريدون أن يفهم القرَّاء أغراضهم أو إبداعاتهم كما يقولون.

وقرأت ديواناً آخر من هذا الشعر غير التقليدي، وأنا أصفه بهذا الوصف استخلاصاً مما يصفون به الشعر العربي الأصيل، فإذا به يطفح بالتمرُّد على الأخلاق والمواضعات الاجتماعية، وعلى الخالق جلّ جلاله، وينعته بأسوأ النعوت، ويعكس اللعائن التي تصبها الكتب المقدَّسة على الشياطين وعلى المجرمين وعلى المفسدين في الأرض، فيوجهها للإله، لا أدري أي إله يقصد، لأنه يُعبِّر تارة بالآلهة، تماماً كما يُعبِّر ملاحدة الغرب ووثنيوهم الذين طبعوا أعمالهم على غِرارهم، فألقيت به من يدي، متعجباً من هذا الاستلاب الذي أُصيب به صاحبه، وهو المسلم المفروض فيه أنه وعى دعوة الإسلام والإصلاح الاجتماعي الذي أتى به، وعقيدة التوحيد التي أنقذت البشرية من أوحال الشرك ورعونة التجديف وخزي الجاهلية، وقلت في نفسي أيهما التقليدي؟ هذا الشعر الذي هو بوق مبحوح لتراث متخلِّف وكافر بالقيم والأخلاق والمثل العليا، أم الشعر الذي رفع شعار الإنسانية المهذبة، وأعلن عن تحرُّر الفرد والجماعة من سيطرة المتآجرين بالشعوذة والتدجيل والتربُّب على الخلق وكان وما يزال علماً للأخلاقية القومية المقدَّسة.

إن هذا لهو العجب العجاب، أن يردّ الإنسان في الحافرة بعد أن هدي

إلى الصراط المستقيم، ويكون السبب في ذلك هو جهله بتراثه الخاص به وزهده فيه والارتماء في أحضان التراث الأجنبي، بذريعة التفتح على الثّقافة العامّة والانتفاع بالتراث الإنساني المشاع بين الأمم والشعوب على اختلاف أجناسها وألوانها حتى لو كان متعارضاً مع تراثه الخاص في الجوهر والعرض، ولاسيّما التراث العربي الإسلامي الذي يحتوي على كنوز من المعرفة وذخائر من الآداب طالما استمدّ منها الآخرون، وكانت سبب نهضتهم، وإثراء ثقافاتهم، فكيف إذا تعلَّق الأمر بالمقومات الذاتية للأمة التي ينسب إليها من عقيدة وشريعة ودستور خلقي عظيم، إنها معالم لا يجوز أن يتخطاها أحد يحافظ على كرامة أمته، ويعمل لرفع شأنها وإحلالها المكانة اللائقة بها بين الأمم.

ولقد قام أوائلنا في عهد النقل والترجمة، باقتباس شتى المعارف والعلوم من شعوب مختلفة كالهند والفرس والإغريق وما إليهم، ولكنهم لما اطلعوا على بعض آثارهم الأدبيّة مرّوا عليها مرّ الكرام، بلّ ازدروها وسخروا منها لما رأوا فيها من سخافات وتكريس للوثنيات، اعتزازاً بما عندهم من العلم الصحيح والعقيدة السليمة التي جاء بها كتابهم الفاتح للعيون العمي، والآذان الصم لا والقلوب الغلف، واستغناء بأدبهم الذي لم يلبث أن غزا الآداب العالمية، فألقت إليه باليد، وأخذت عنه، بدل أن يذوب هو فيها، فكان أن تصدرتها أناشيد رولان وكوميديا دانتي، وتبنَّى شعراء فارس أوزان شعره وعَرَوضه، وهكذا تَمّ لأدبه، شكلاً وموضوعاً، التفوُّق على آداب العالم، من غير أن

يحتاج إلى تزكية دولية ولا جائزة من لجنة نوبل وما شاكلها.

إن كلّ ما أردت أن أقوله، ويفهم من كلامي هذا، هو أننا نحن العرب من الفريق الأول الزاهدين في تراثهم، على عِظَمِه وغِناه، والواقفين منه موقف النبذ والطرح، والمعتدل منا من يُعبِّر عن حيرته بين الأصالة والمعاصرة، وقلت إن تراثنا عظيم وغني، ولَعلّي بخسته حقه، فهو إن لم يكن أعظم تراث وأغناه تمتلكه أمة من الأمم القديمة الباقية كالهند والصين أو تركته أمة من الأمم المنقرضة كاليونان والرومان، فهو من أعظم التراث الإنساني وأغناه بلا جدال ويُقرِّر الخبراء في ميدان الحضارة والفكر، التراث العلمي والأدبي العربي، بما لا يقل عن ثلاثة ملايين من الكتب المخطوطة المحفوظة في مكتبات العالم، منها نحو ثلث هذا العدد، بمكتبات عاصمة الخلافة العثمانية اسطنبول، والباقي بمكتبات مصر والشام والعراق وتونس والمغرب، وعواصم أوروبية مختلفة، وهي تتناول علوم الفلسفة والشريعة واللّغة والتاريخ والأدب والطب والهندسة والفلك والرياضيات وتقويم البلدان والتراجم وغير ذلك.

ولم يُبحَث ويُنشَر من هذه الكتب القيِّمة إلّا القليل الذي لا يبلغ نسبة ثلاثة في المئة، وغالبه إنما نُشر بعناية المستشرقين الأجانب، فما أضيع التراث الذي يكون اهتمام الأجنبي به أكثر من اهتمام أهله وذويه!

وإلى هذا التراث العلمي والأدبي، هناك التراث الفَنّي والحضاري الذي يتمثَّل في المعمار والبناء والزخرفة والنقش على الجص والخشب،

والخطوط الجميلة المتنوِّعة، وتجليد الكتب والمصاحف، والمصابيح الزجاجية الملونة والصحون الخزفية الرفيعة، والأكواب والأباريق، والزرابي المخملية والنعال المطرزة، والمناديل الحريرية والطيلسانات الفاخرة، وأنواع الحلي الثمينة، أضف إلى ذلك الآلات الموسيقية ومنها القانون، والأنغام والصنائع وفنون الغناء، وصنوف الطعام، والطبيخ والأشربة والمربيات والحلويات وقوارير الطيب والعطور الفاغمة، وغير ذلك مما يطول تتبُّعه، ولقد بقيت قصور الحمراء في غرناطة بالأندلس شاهداً ناطقاً بعظمة الفَنّ الإسلامي، يحج إليها السياح من جميع أنحاء العالم، فيبهرهم جمالها وتنسيقها، ويلتقطون منها الصور الرائعة التي لا ينقضي أعجابهم بها، فكيف لو شاهدوها مفروشة بالفرش البديعة التي تنسجم مع بنائها، ومؤثثة بالأثاث الأنيق المناسب، وموائد الطعام الشهي مبسوطة، والمغنون يشنفون الأسماع، بالشجي من الألحان، والمطرب من الأوزان، إذن لكان إعجابهم أكبر وانبهارهم أعظم.

هذا هو التراث المهجور الذي كان يجب أن يتمثَّل في حياتنا المعاصرة ويحيا بتجديده واستيحائه في أعمالنا ومنجزاتنا من أجل النهضة والانبعاث حتى لا نبقى عالة على الغير، ونتبدَّل بالغنى فقراً، ونكون كالغراب الذي أراد أن يحكي مشية الحمامة فلا هو بمشيته ولا بمشيتها.

إن قِلّة من الأجانب الذين داخلوا تراثنا العلمي ونخلوه، كانوا أكثر منا فهماً له وتأثراً به، فعرفونا بقيمة ابن خلدون وابن رشد وابن بطوطة،

والرازي وابن الهيثم والشريف الإدريسي وغيرهم وغيرهم، ممن لم نُقمْ له وزناً إلّا بعد الاطّلاع على أعمالهم ودراساتهم، وكتبوا عن حضارتنا ومدنيتنا ما لم نكتب نحن نظيره إلى الآن، وإليكم كتاب مدينة العرب لغوسلاف لوبون وكتاب آدم ميتز عن الحضارة العربيّة في القرن الرابع وكتاب شمس العرب تشرق على الغرب للدكتورة هونكه، ولقد كان موريس بوكاي، وهو عالم أحياء معاصر أسبق منا إلى الكتابة عن إعجاز القرآن في البيانات التي أعطاها عن أطوار تكوُّن الجنين مما لم يكن معروفاً قبل القرن الحالي، ومثل ذلك يُقال في الكتابة عن الفَنّ الإسلامي من طرف الباحثين الأجانب في فَنّ المعمار والموسيقى والرسم والزخرفة وما إليها وتقديمه علمياً إلى من يهتم بذلك من أقوالهم، وإلينا نحن من أهله وذويه.

وفي نظري، أن إحياء التراث ليس بنشره وتحقيق نصوصه فقط، ولكن بتمثله وتقييمه ودراسته علمياً وتقديمه إلى القرَّاء، ليبعث فيهم روح الحفاظ عليه، ويحفزهم إلى محاكاته والبناء عليه، وإضافة ما جد في عالم المعرفة له، وإقناع من لم يقتنع منهم بأن العربيّة لغة علم وبحث وتدريس وتدوين.

ولَعلّ خطر الجهل بالتراث أعظم ما يتمثَّل في حياتنا الأدبيّة، فقد انعكس على إنتاجنا الشعري والروائي والمسرحي، ولا أقصد الصياغة الجديدة لما يُسمَّى بالشعر الحديث، أو شعر التفعلة، فهذا لا يعدو أن أن يكون مثل عمل الموشحات التي ابتكرها الأندلسيون، ونظموها على ما لا يحصر من الأوزان والأشكال فبقي منها ما استساغته الطبيعة

العربيّة، واندثر منها ما كان غير مستساغ، إن المضمون لا الشكل هو المراد، وهذا الشعر الحديث أو أكثره، قد أصبح كلاماً لا هو بالعربي ولا بالأعجمي، أن قاموسه غير القاموس المستعمل عند أبناء العروبة، فهو يقلب دلالات الألفاظ على النحو الآتي في هذه الشطرة على سبيل المثال «أرى أنيناً وأسمع دمعاً» وقد انتشر على نطاق واسع، وفتحت له المجلّات الكثيرة أبوابها لأنها لم تعد تجد المادة الكافية لملء أعمدتها، وتداعى إليه شباب لم يتموا دراستهم ولم يتزودوا بثقافة عربيّة أصيلة ثم أوجدوا له مقاييس نقدية مأخوذة من الآداب الأجنبية، وطبقوها عليه بل على الشعر العربي الأصيل، وهي أبعد ما تكون عن أذواقنا وثقافتنا، ولذلك فإنها كالشعر المُتحدَّث عنه، لا تجد تجاوباً مع الجمهور العربي، كما كان العهد بالشعر إلى الأمس القريب، فكانت قصائد شوقي وأمثاله تُنشَر في الصفحة الأولى من الجرائد الكبرى، ويتناقلها الناس، وتدرج في محفوظات تلاميذ المدارس وكتب الأدب، أما الآن وقد اختلط الحابل بالنابل، ومرض الذوق الأدبي فقد كدنا نصبح أمة بدون أدب.

وليقلْ في القصص والمسرح ما قِيل في الشعر، إن لم يكن أسوأ، لمسه بالعقيدة والحياة الدينية، فهذه امرأة تسعى في الطلاق جهدها حتى إذا طلقت صباحاً لم ترح إلّا متزوجة بغير نظر إلى عِدّة ولا غيرها، وهذه أخرى تعمل على قتل زوجها لتستبد بثروته هي وخطيبها وعلى الأصح مُخَلّقُها[1] على زوجها، وليذهب حكم عدم إرث القاتل وحرمة

(1) التخليق: إفساد المرأة على زوجها حتى يطلقها فيتزوجها هو، وهي تحرم عليه حرمة مؤبدة.

المخلقة على مُخَلِّقُها إلى الأبد، وعدم انفراد الزوجة بالإرث إلى حيث ألقت رحلها أُمُّ قشعم، وأمثلة الاستلاب والاحتواء، والغزو من هذا القِيل كثيرة، وكلّ ذلك نتيجة غياب التراث، وتعاملنا معه وانسياقنا في حبل المعاصرة المزعومة وهي بهذا المفهوم إنما تجرنا إلى تيه لا مخرج منه إلّا برجوعنا إلى الجادة وتمسكنا بالعروة الوثقى.

«المناهل» - يوليو 1986

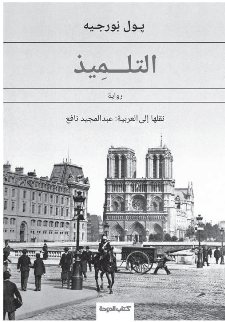
الفهرس

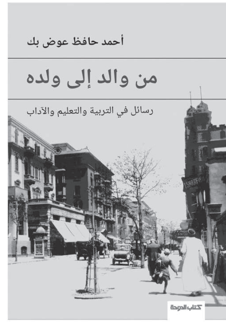
صدر من سلسلة كتاب الدوحة

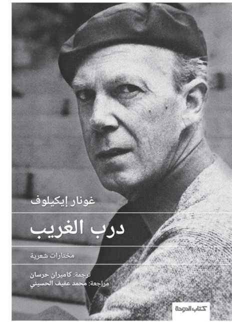
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
--	فتنة الحكاية جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش

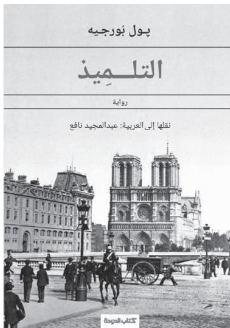
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحوُّلات الصفوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح

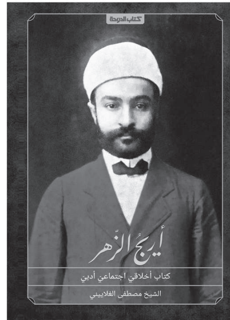
صدر في سلسلة كتاب الدوحة

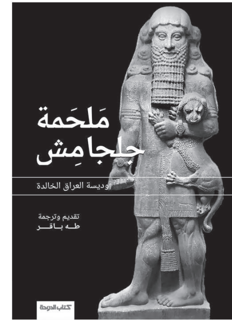












يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com

«نحن العرب من الزاهدين في تراثهم، على عِظَمِه وغِناه، والواقفين منه موقف النبذ والطرح، والمعتدل منا من يُعبّر عن حيرته بين الأصالة والمعاصرة، وقلت إن تراثنا عظيم وغني، ولَعلّي بخسته حقه، فهو إن لم يكن أعظم تراث وأغناه تمتلكه أمة من الأمم القديمة الباقية كالهند والصين أو تركته أمة من الأمم المنقرضة كاليونان والرومان، فهو من أعظم التراث الإنساني وأغناه بلا جدال ويُقرِّر الخبراء في ميدان الحضارة والفكر، التراث العلمي والأدبي العربي، بما لا يقل عن ثلاثة ملايين من الكتب المخطوطة المحفوظة في مكتبات العالم، منها نحو ثلث هذا العدد، بمكتبات عاصمة الخلافة العثمانية اسطنبول، والباقي بمكتبات مصر والشام والعراق وتونس والمغرب، وعواصم أوروبية مختلفة، وهي تتناول علوم الفلسفة والشريعة واللّغة والتاريخ والأدب والطب والهندسة والفلك والرياضيات وتقويم البلدان والتراجم وغير ذلك. ولم يُبحَث ويُنشَر من هذه الكتب القيِّمة إلّا القليل الذي لا يبلغ نسبة ثلاثة في المئة، وغالبه إنما نُشر بعناية المستشرقين الأجانب، فما أضيع التراث الذي يكون اهتمام الأجنبي به أكثر من اهتمام أهله وذويه!»

عبدالله كنون



www.aldohamagazine.com